لعنة الغراب الأسود

روايةَ

للكاتبة / خلود خالد خلف

المؤلف: خلود خالد خلف

الناشر: دار نهر الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف والإخراج الفني: القسم الفني بدار نهر الكتب (لوجوتيلز)

المراجعة اللغوية: سحر محمود

رقم الإيداع: ٧٠٩٦ /٢٠٢٠ م

الترقيم الدولي: ٢- ١٥ -٦٧١٧-٩٧٧-٩٧٨

المدير العـــام: هالة رجـب

رئيس مجلس الإدارة: محمد محمد هيكل

جميع الحقوق محفوظة لدار نهر الكتب للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة الدار يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، والآراء والمادة العلمية الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

جمهورية مصر العربية

موبايل:٠٠٢٠١٠٦٩٦٤٨٠٠٨ ــ ٠٠٢٠١٠٢٢٤٤٣٤٧٢

البريد الإلكتروني: nhrelkotob@gmail.com

إهـــداء

روح غالية عبرت الدنيا إلى الجنة بسلام، ولم تنثر بها إلا كل طيب.

كانت بمثابة نسمة هادئة في فصل الصيف، لمسة دفء في فصل الشتاء.

زهرة نادية في ربيع الدُّنى.

إلى روح زوجي المغفور له بإذن الله، الذي تشابهت لحظات وداعه للدنيا مع حسام في هذه القصة.

المقدمة

هو الحاتم الذي يحتم بالفراق، فراق الأحبة.

ما احتك به شخص إلا وأصابته لعنته "لعنة الغراب الأسود".

يقولون أن غرابًا أسودًا عقره في ذراعه ظهيرة يوم عيد ميلاده الثامن.

كاد العَقْر يودى بحياته بعد حمى شديدة ولكنه عاد مرة أخرى، ولكن بقلب مليء بالسواد.

كلما أحس بالغضب أو فعل فعلة شنعاء يؤلمه ذراعه المصاب، وأي شخص يرفضه أو يعكر مزاجه يكون له نصيب من اللعنة سواء بالموت أو الخيانة.

****

١- هروب من الماضي

****

(إحدى قرى مدينة طنطا ١٩٧٨)

"إذا كنت تظن أن جريمتك ستختفي إلى الآبد مع دفنك لها فأنت واهم، وإذا كان لا يوجد شهود عليك، فالله شاهد وهو وحده القادر على تصفية الحسابات"

انتهى من إهالة التراب على جزء من جريمته التي دفنها تحت إحدى الأشجار، وأخذ فأسه ووعاء الوقود الذي أخرجه من خزان سيارته واتجه إلى المنزل الذي يقبع في ظلام البلدة وعلى أطرافها، ولا يشعر أحد بما يدور به مهما حدث؛ لبُعد مكانه عن المناطق المأهولة وأيضًا لهدوء البلدة خاصةً في الليل، دخل المنزل ونظر إلى الجسد الملقى بنظرات خاوية، حينها اشتدّ ألم ذراعه ورمي ما بيده وهو يمسكه بشدة وقد أحمرت عيناه ألمًا، تحامل على نفسه وأمسك الوقود يسكبه في كل مكان بذراع واحدة، وخرج إلى الحديقة وهو يسكب آخر جزء منه أمام الباب، أخرج علبة الثقاب من جيبه وأشعل عودًا وألقاه ليبدأ بعدها الجحيم.

****

بعد مرور ثلاث سنوات....

جرت السيدة العشرينية في طرقات الطابق العلوي للمنزل في الصباح الباكر وهي تنادي بجزع: زياد، أنت فين، زياد؟

قابلها زوجها وهو يصعد السلالم من الطابق السفلي قائلًا بلهفة: لقتيه يا سعاد؟

هزت رأسها نفيًا وهي على وشك البكاء قائلة: لأ.

تصاعد القلق بأعماقه وقال بجزع: هيكون فين؟ ده نايم في أوضته قدامي إمبارح.

أمسكته سعاد من قميصه قائلة بلوعة وهي تبكي: ابني فين يا حاتم؟ أنا عايزة ابني، هات لي ابني يا حاتم.

وفجأةً صاح أحد الرجال في الأسفل وهو يدخل المنزل مهرولًا: يا حاج جبريل، الحق يا حاج، يا أستاذ حاتم.

هرعوا إلى الأسفل وقابلهم والد حاتم الذي قابل الرجل قائلًا بانفعال: في إيه، لقيتوا زياد؟

نظر لهم الرجل بإشفاق وقال بتردد خافت: أيوه.

سعاد ببكاء: ابني، هو فين مجاش ليه؟

صمت الرجل وهو يبتلع ريقه بصعوبة، فقال حاتم بغضب: ما تنطق يا بني آدم.

الرجل كمَنْ يلقي قنبلة: لقناه غرقان في الترعة.

شهقت سعاد غير مصدقة وسقطت مغشيًا عليها، بينما بدأ ألم ذراع حاتم فمسكه وهو يكتم انفعاله، وصرخ جبريل بصدمة: إنت بتقول إيه؟!

****

(القاهرة١٩٨٣)

لقد كان يومًا عصيبًا علي، يوم خرجت في أخر نزهة لي مع والدتي وأخي الحبيب، اعتذر أبي عن المجيء لانشغاله بتوديع عمتي تهاني وزوجها وأبنائهم قبل سفرهم إلى دولة العراق الشقيق، لقد كان محظوظًا لأنه لم يرَ ما رأيته، لم يحضر لحظة أن مُزق قلبي، لحظة حبس صوتي في حلقي، لا أعلم لمّ تركتهم في هذه اللحظة تحديدًا حتي يفارقوا الدنيا بدوني؟! لقد كان بيني وبينهم بضع خطوات فقط ولكن هو النصيب، النصيب الذي جعلني

أركض خلف قطة صغيرة لملاعبتها ليسقط سور الحديقة المتهالك فوقهم، عجبًا لقد كنت أجلس معهم منذ أقل من ثانية، لقد سقط الجدار أيضًا في محل جلوسي ولكنني كنت قد فررت منه؛ لأن ما زال في عمرى بقية ولأن هناك من تنتظرني في مكان أخر تنشد المساعدة.

جلست في شرفتها تتأمل طلاب المدرسة الإبتدائية المواجهة لمنزلها وهم يركضون خروجًا من المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، ورغم أن الوقت قد تجاوز الظهيرة بقليل إلا أن نسمة هواء واضحة لفحت وجهها الهادئ؛ فتطاير شعرها الأسود وابتسمت بهدوء، فهي تعرف أن هذه النسمة تعني بالنسبة لها دخول فصل الخريف، الفصل المفضل لوالدتها وأخيها التوءم رحمهما الله.

خرج مدرس في الأربعينيات من عمره من المدرسة بعد انتهاء خروج الطلاب، وأشار لها بحب آبوي وهي تجلس بالنافذة ثم أغلق البوابة مع حارس المدرسة مغادرًا، ما هي إلا دقائق وفتح الباب ودخل منه، فأسرعت إليه لتلقي نفسها بين ذراعيه، احتضنها بحنان قائلًا بعتاب: برضه ما رحتيش المدرسة النهارده يا ليلى؟

أشارت برأسها علامة النفي وهي تضع وجهها الحزين في الأرض خجلًا، ربت علي شعرها بحنان قائلًا: ولا يهمك يا حبيبة بابا، وقت ما تحبي تروحي روحي، غير كده ما تضغطيش على نفسك.

أتت سيدة في أواخر الثلاثينيات وهي تمسح يديها بمنشفة صغيرة قائلة: إنت جيت إمتى يا كمال؟

كمال وهو يضع حقيبته الصغيرة على الطاولة ويجلس مستريحًا لسه حالًا يا تهاني.

جلست تهاني بجواره وهي تقول بامتعاض: بنتك غلبتني زي كل يوم.

نظرت لها ليلى بحزن وخجل وانسحبت بهدوء إلى غرفتها، تبعها كمال بعيون حزينة.

كمال بعتاب لأخته: يعني مكنتيش عارفة تقولي الكلمتين دول بيني وبينك، أنا ما باصدق إن البنت تتحسن شوية.

تهاني بامتعاض: بنتك بتدلع، سنة دلوقتي على وفاة أخوها ومامتها، وهي لسه زي ما هي ما بتتكلمش وعاملة فيها درويشة، لا مدرسة بتروح ولا اختلاط بحد، الكلام ده ما ينفعش، لازم تشد عليها شوية.

كمال بضيق: أشِد عليها إزاي يا تهاني؟! اقتلها يعني عشان ترتاحي، واحدة شافت أمها وأخوها ميتين قدام عينيها، عايزة حالتها تبقي عاملة إزاي، ده حتى الحيوانات بيحزنوا على بعض.

تهاني بعدم رضا وهي تخرج الأطباق من الخزانة المجاورة لهما: يعني عاجبك إنها ضيعت السنة اللي فاتت على نفسها، وهي ثانوية عامة وشكلها هتضيع السنة دي كمان.

لم يجبها كمال وزفر بضيق وهم، بينما انهمكت هي بوضع الغداء على الطاولة.

سعاد بتعملي إيه؟

أطلق السؤال شاب في الثلاثينيات من عمره لزوجته التي شارفت على الثلاثين من عمرها.

أجابت بحدة وهي تضع ملابسها في حقيبة: زي ما إنت شايف، باجهز شنطي أنا والولاد رايحة لماما.

أولته ظهرها وهي تكمل ما بيدها فجذبها من ذراعها بعنف إليه قائلًا بغضب: إحنا مش خلصنا من الموضوع ده.

نفضت يدها من قبضته قائلة بقلب جريح: لأ ما خلصناش، أنا مش هاستني لحد ما ولادي كلهم يموتوا هنا، أنا نازلة طنطا لماما يعني نازلة يا حاتم.

حاتم باستعطاف مزيف: طيب استني لحد بالليل.

سعاد وهي تكمل ما بدأت: اشمعنى ؟

حاتم بصوت متأثر: عشان بابا زمانه راجع من القاهرة وقالي جايب ألعاب لطارق وياسمين وعايز يتعشى معانا، يرضيكي نزعله؟

توقفت سعاد عن عملها قائلة في حيرة: الحاج جبريل على راسي من فوق بس خلاص فاضل شهر بس وأنا...

أمسك حاتم يدها ليوثر عليها قائلًا بحنان: شهر إيه بس وبتاع، إيه الأوهام اللي في دماغك دي؟ مش هتحصل إن شاء الله.

فرت دمعة من عين سعاد قائلة بصوت مختنق: موت زياد ابننا كان وهم يا حاتم؟!

اعتصر الألم قلب حاتم قائلًا: لا مكنش وهم للأسف، أنا قصدي إن اللي بتفكري فيه دلوقتي وخوفك المرضي على الولاد ده هو اللي وهم.

سعاد بخوف: أنا قلبي مش مرتاح يا حاتم، أرجوك سيبني أروح لماما على الأقل الفترة دي، هاكون أنا والولاد أحسن هناك.

حاتم ليجاريها: حاضر بس هتمشي بالليل عشان نقعد مع بابا وما يزعلش.

سعاد باستكانة: حاضر.

حاتم وهو يحيطها بذراعيه مبتسمًا: أنا عارف إنك عاقلة وقلبك كبير.

رغم محاولته لطمأنة قلبها إلا أن قلبها كان يصرخ فزعًا على أطفالها، وناره لم تبرد بعد، على ولدها الأكبر الذي توفي منذ عامين تقريبًا في

ظروف غامضة وتخاف أن تتكرر المأساة مرة أخرى ولكنها ستنتظر للمساء، فهي مجرد ساعات وترتاح بجوار والدتها في طنطا، وفي أحضانها طفليها اللذان لا تملك من الدنيا سواهما.

****

انتهى كمال من صلاة العشاء وخرج من غرفته مرتديًا ملابس الخروج.

تهاني بألية: إنت رايح القهوة برضه؟

كمال: أيوه.

تهاني بتردد: على فكرة أنا مسافرة آخر الشهر، أنا قعدتي هنا طولت وجوزي وولادي محتاجين لي.

كمال بتنهيدة: براحتك يا تهاني، كفاية تعبك معانا الفترة اللي فاتت.

تهاني بقلق: طاب وبنتك هتقعد مع مين وأنت بره بعد كده؟

كمال بِحِيرة: هاشوف الموضوع ده، ما تقلقيش.

تهاني بجدية: باقولك إيه، ما تشوف لك بيعة للشقة دي وتعزل، يمكن ليلى نفسيتها ترتاح.

كمال بسرعة غاضبًا: لأ طبعًا، أنا عمري ما أبيع ذكرياتي مع مراتي وأولادي، إنتي إزاي تقولي كده ؟

تهاني بحدة مفاجئة: وبنتك عمرها ما هتتحسن طول ما أنت قاعد هنا، لازم تمشوا من هنا، حتي لو هتسافروا، البنت محتاجة تغير جو طول ما هي هنا هتعيش وسط الصور والذكريات ومش هتختلط بحد.

نظر لها كمال بحزن ولم يجب، فهو يعرف إنها على حق تمامًا ودائمًا ما

يعجز عن الرد عليها، فقطع الكلام قائلًا: أنا نازل.

أغلق باب المنزل خلفه مغادرًا، بينما قالت تهاني بتنهيدة: ربنا يصلح حالك يا أخويا ويشفي بنتك يارب.

ذهبت لغرفة ليلى وفتحتها لتجدها تغط في نوم عميق وهي محتضنة ألبوم صور عائلتها، وصوت القرآن الكريم يملأ الحجرة فيشعر من يدخلها بالهدوء والسكينة، أخذت تهاني الألبوم بحرص من بين ذراعي ليلى ووضعته على مكتبها ودثرتها بغطائها، وخفضت صوت الراديو قليلًا، ثم طبعت قُبلة على خد ليلى قائلة بحنان: أنا مش وحشة يا ليلى، بس مشكلتي إني ما باعرفش أزوق الكلام، ما تزعليش مني يا بنتي.

وأغلقت أضواء الحجرة مغادرة.

***

انهمك الخدم في رفع أطباق طعام العشاء من على الطاولة الفخمة في منزل الحاج جبريل، بينما جلس الحاج جبريل أرضًا وهو يدير لعبة القطار لأحفاده طارق وياسمين، وعندما انطلق القطار مُصدرًا أصواتًا طفولية؛ قفزا الطفلان فرحًا محتضنين جدهما قائلين: شكرًا يا جدو.

قبّلا لحيته البيضاء فقبلهما قائلاً بسعادة: إنتوا تطلبوا عيني يا حبايب جدو.

نظر لهم حاتم بسعادة بينما كان عقل سعاد مشغول بالسفر لوالدتها.

في هذه اللحظات كان كمال يجلس مع صديقه على المقهى

صديقه بهدوء: أختك عندها حق يا كمال، بنتك لازم تغير جو وكمان تحول من مدرستها دي لإنها طول ما هي فيها مش هتروحها تاني لأن المدرسة دي مرتبطة بأخوها برضه.

كمال بحيرة: طيب أعمل إيه بس دبرني؟

صديقه: ربنا المدبر يا كمال، وأنا شايف إنها محلولة.

كمال باستغراب: إزاي؟

صديقه بهدوء: إنك تقبل الترقية المعروضة عليك، وما تأجلهاش أكتر من كده.

كمال باستنكار: عايزني أروح الغربية يا عزت؟!

عزت بسرعة: وفيها إيه، إنت هتبقي ناظر مدرسة هناك، يعني وظيفة أي حد في سننا يتمناها، وبنتك كمان تنقلها مدرسة الثانوي اللي في طنطا وتندمج بناس ومجتمع جديد.

كمال بعدم اقتناع: بس أنا طول عمري عايش في القاهرة، هاعيش هناك إزاي! وخصوصًا كمان إن المدرسة في قرية، يعني مجتمع ريفي وعادات مش زينا خالص وخايف ليلى تضايق.

صديقه برزانة: ليلى مكان ما أنت تروح هتروح معاك، ما تبقاش متردد، أنا عارف إن إنت كمان مرتبط بالمكان هنا عشان ذكريات مراتك وابنك الله يرحمهم، بس مصلحة ليلى أهم، والجو هناك هيساعدها على الشفا إن شاء الله.

كمال باستسلام: عندك حق.

عزت: خلاص بكرة إن شاء الله تروح الإدارة تخلص ورقك وكمان تجهز ورق ليلى عشان تنقلها وإن شاء الله خير.

دقت الخادمة باب غرفة سعاد ودخلت لتجدها بملابس الخروج وهي تغلق معطفها.

سعاد بهدوء: خدي الشنط دي نزليها يا نعمات وقولي للسواق يجهز، ونادي الولاد يالا.

الخادمة بتردد: بس...

سعاد بتساؤل: بس إيه؟

دخل حاتم قائلًا للخادمة: روحي إنتي يا نعمات.

نعمات مغادرة: حاضر يا بيه.

سعاد بترقب: في إيه؟

حاتم مظهرًا الأسف: للأسف مش هينفع تسافروا الليلة.

سعاد باعتراض: ليه بقا إن شاء الله إنت وعدتني؟!

حاتم ليهدئها: بالراحة، بس ده ظرف طارئ والله، عم لمعي السواق مراته بتولد واضطر يروّح.

نظرت له سعاد بعدم تصديق فقال مسرعًا: صدقيني ده اللي حصل.

سعاد بثورة مفاجئة: إنت بتكدب عليا عشان ما اسافرش، بتحطني قدام الأمر الواقع يا حاتم.

حاتم نفيًا: لا والله ده اللي حصل، وطبعًا مش هينفع تسافري دلوقتي مواصلات.

سعاد منهية الحديث وهي تحمل حقيبتها: خلاص وصلنا أنت.

نفخ حاتم بضيق قائلًا: إنتي عارفة إني ما باسوقش بالليل عشان نظري ما يسمحش بكده، ولا مش واخدة بالك من نضارتي!

وأشار لنظارته الطبية فأزاحته سعاد بيدها بعيدًا عن طريقها قائلة بحسم: أنا مش هاستني هنا دقيقة زيادة، أنا غلطانة إني رجعت من عند ماما أصلًا.

خرجت من الغرفة مسرعة وهي تنادي أطفالها: ياسمين.. طارق.

اعترض حاتم طريقها قائلًا بحدة: بلاش الطريقة دي قدام بابا، مش عشان بحترمك تسوقي فيها!

سعاد بصراخ: ابعد عني، أنا همشي يعني همشي.

دفعته بعيدًا مسرعة إلى السلم الداخلي للمنزل، أتى الحاج جبريل مع الطفلان من غرفة في الطابق الأرضي قائلًا بغضب: في إيه يا حاتم؟!

لم يجبه حاتم وأسرع خلف زوجته التي اقتربت من السلم للنزول وحاول مسك ذراعها قائلًا بغضب: لا إنتي اتجننتي بجد.

أفلتت سعاد ذراعها منه بسرعة فاختل توزانها وسقطت فوق السلم لتأخذ درجاته سقوطًا إلي الأسفل وهي تصرخ بفزع حتي استقرت تحت اقدام حماها وأطفالها الصغار.

و أسرع حاتم إليها بفزع قائلًا: سعاد!

****

٢- منزل وردة

****

"مهما خططت لتهرب من قدرك فلن تفلت منه، تظن أنك قادرُ على تحديه وتغييره ولكنه في كل مرة يصفعك على وجهك ليثبت لك عكس ذلك"

انتهى طبيب الوحدة الصحية من تجبير قدم سعاد وساقها قائلًا بإشفاق: الوقعة كانت جامدة أوي.

الحاج جبريل باهتمام: يعني فيه إصابات غير رجليها يا دكتور؟ أوعي تكون مخبي عننا حاجة!

الطبيب وهو يلملم أدواته: لا والله يا حاج، هخبي إزاي بس، ده واجبي إني أبلغكم، زي ما قلت لكم الكسر جامد شوية، وشوية كدمات في ضهرها هيبقي صعب حركتها منهم.

حاتم بتساؤل: يعني ما ينفعش تسافر أو تركب عربية اليومين دول؟

الطبيب: للأسف لأ هيبقي تعب جامد عليها وممكن تحصل مضاعفات لا قدر الله.

كانت سعاد تبكي وهي تحتضن طفليها وعندما سمعت عبارة الطبيب بعدم قدرتها علي السفر ازداد نحيبها وهي تحتضن أطفالها أكثر بفزع.

نظر لها جبريل وحاتم بإشفاق وأسى وقال الحاج جبريل: إتفضل يا دكتور أوصلك.

غادر مع الطبيب وجلس حاتم بجوار زوجته قائلًا باعتذار: أنا أسف والله ما كان قصدي.

سعاد ببكاء: إرتحت كده، مكنتش عايزني أسافر، أديني قاعدة عمري ما هاسامحك يا حاتم.

حاتم وهو يمسك يدها: طيب أعمل ايه بس عشان أصلح غلطتي دي؟

سعاد بتوسل: تاخد الولاد بكرة توديهم لماما، وأنا هاكلمها في التليفون أفهمها اللي حصل.

حاتم ليرضيها: حاضر يا ستي بس مامتك هتعرف تراعي الولاد؟! وكمان هيسيبوا مدرستهم مدة قد إيه؟

سعاد بانزعاج: بلا مدرسة بلا زفت سلامتهم عندي بالدنيا وما تخافش ماما هتراعيهم أحسن مني.

حاتم بضيق: بس لو تبطلي كلامك اللي زي الرصاص ده، كنتي تريحيني وترتاحي.

سعاد بمرارة: إنت عارف كويس إني مكنتش كده، بس موت زياد هو اللي دبحني، أرحمني بقا، أنا فيا اللي مكفيني.

حاتم وهو يأخذ الأطفال: أنا هاروح أنيم الولاد في أوضتهم وأرجع لك.

سعاد بسرعة وهي تحتضنهم: لأ، ولادي هيناموا في حضني.

نفخ حاتم بضيق وغادر الغرفة قائلًا: دي بقت عيشة تقرف بجد.

أغلق الباب خلفه بعنف بينما احتضنت سعاد طفليها وقد بدأ النوم يداعبهما ودموعها تنساب بهدوء.

أغلق حاتم إحدى الغرف عليه وجلس علي السرير بحزن وهو يمسح دمعة فرت من تحت منظاره الطبي.

خلعه ومال برأسه إلي الخلف وهو يمسح عينيه بإرهاق ليخفي الدموع التي بهما.

رجع بذاكرته إلي الوراء و تذكر منذ عامين وهو يلعب مع أطفاله الثلاثة كان زياد ثماني سنوات وطارق ست سنوات وياسمين أربع سنوات.

و لكن القدر لم يتركه في سعادته، ففي لحظة اختطف الموت ولده الأكبر يوم عيد ميلاده الثامن، أغمض عينيه بقوة وهو يتذكر تلك اللحظة كأنه يريد أن تنمحي من ذاكرته ولكن هيهات فمهما بلغ النسيان ذروته فالذكريات لا تموت آبدًا.

****

أشرقت شمس الصباح في أول أيام شهر نوفمبر، وأسرعت فتاة في عمر ليلى تقريبًا وهي ترتدي ملابس المدرسة وتغلق حقيبتها قائلة بسرعة: عايزة حاجه يا ماما، أنا ماشية.

أسرعت والدتها إليها قائلة بسرعة وهي تضع طعام في حقيبة ابنتها: استني خدي الساندوتش ده معاكي.

الفتاة وهي تقبلها علي خدها: شكرًا يا بركة.

خرج شاب من إحدي الغرف بيده عصاه وحقيبة صغيرة قائلًا: استني يا بسمة هاوصلك لموقف الأتوبيس.

والدته بسرعة: مش هتفطر يا عادل؟

عادل وهو يخرج مع أخته: هافطر مع زمايلي في المدرسة يا بركة عايزة حاجة؟

والدتهم وهي تودعهم: شكرًا يا ولاد ربنا معاكم.

خرجا عادل وبسمة من منزلهما بالقرية في الصباح الباكر، ومشيا سويًا وسط الأراضي الزراعية التي تحيط بالمنزل وبعض المنازل المجاورة لها وتفصلهم عن باقي القرية وعن الطريق العمومي.

فقد كانت أحد جوانب الطريق أراضي زراعية، والجانب الأخر ترعة القرية وعلى ضفتيها أشجار ضخمة تحوط بفروعها وظلها المكان.

نبح أحد الكلاب بقوة ففزعت بسمة وهي تتشبث بيد أخيها.

عادل ضاحكًا: يا جبانة.

بسمة وهي تضع يدها على صدرها مفزوعة: الله يسامحك، إنت عارف إني بخاف.

عادل: عشان كده بحب أوصلك كل ما أقدر.

بسمة بامتنان: ربنا يخليك ليا، لو كان معايا حد من البلد في المدرسة كنا رحنا سوا وريحناك.

عادل بلهجة ذات معني: قريب أوي ممكن تلاقي واحدة تروح وتيجي معاكي.

بسمة بفرح: بجد يا عادل؟! إزاي إنت هتتجوز ولا إيه؟

انفجر عادل ضاحكًا وقال: أتجوز إيه يا هبلة إنتي.

بسمة بحيرة: أومال إيه؟

عادل: كل الحكاية إن مدرستنا جاي لها ناظر جديد من القاهرة وعرفت من مدرس عندنا إنه عنده بنت في ثانوي وكان بينقل لها ورقها في مدرستك يعني هتروح وتيجي معاكي كل يوم إن شاء الله.

بسمة وهي تقفز بفرح كالأطفال: بجد! واسمها إيه؟

كانا قد وصلا إلى مكان توقف الحافلة على الطريق العمومي عندها قال عادل: وإنا هعرف منين يا ذكية اللي عندي قلته وخلاص.

أتت الحافلة في هذه اللحظة فقال عادل: اركبي يالا وخلي بالك من نفسك.

بسمة وهي تركب بسرعة: حاضر، سلام.

تبعها بعض الواقفين ركوبًا وانطلقت الحافلة إلى وجهتها.

همّ عادل بالمغادرة إلى المدرسة الإبتدائية بالقرية حيث عمله، فنظر على طريق منزلهم الزراعي قائلًا برهبة: طريق يقبض القلب أعوذ بالله.

****

انتهى كمال وتهاني من تغطية الأثاث بأغطية بيضاء، وأسرعت تهاني تغلق النوافذ جيدًا.

اتجه كمال إلى غرفة ليلي فقالت تهاني: يالا يا كمال هتأخر على الطيارة بتاعتي.

كمال وهو يزفر: حاضر.

دخل غرفة ليلى فوجدها تجلس على سريرها وهي تبكي وحقيبتها مجهزة في أحد الأركان.

جلس بجوارها وهو يحيطها بذراعيه: لميتي كل حاجتك يا ليلى؟

هزت رأسها دلالة الإيجاب وهي تمسح دموعها.

كمال بحنان: أنا عارف إنك زعلانة عشان هنسيب بيتنا، بس هي إن شاء الله سنة وهاقدم طلب ونرجع مصر تاني.

لم تجبه كالعادة منذ أكثر من عام مضى، فنظر لها بحزن وهو يحمل حقيبتها قائلًا: يالا يا حبيبتي.

أغلق الغرفة خلفه جيدًا، فاحتضنتها تهاني قائلة بصوت مشرق: هتوحشيني يا ليلى.

ابتسمت لها ليلى بحزن وقال كمال بحزم: أول ما توصلي العراق كلميني تطمنيني عليكي، إنا إديتك رقم تليفون المدرسة، هكون هناك بعد بكرة الصبح إن شاء الله.

تهاني بسرعة وهي متشوقة للذهاب لبيتها: حاضر حاضر، وإنت خد بالك من ليلى.

أغلقوا المنزل جيدًا وهم يحملون حقائبهم مغادرين، كلٌ ذاهب إلي وجهته، منهم من يبحث عن الفرح بجوار أسرته والاستقرار، ومنهم من يبحث عن النسيان والهروب من الأحزان في بلد ومكان جديد، ولا يعلمون ما ينتظرهم به.

****

انهمك حاتم مع والده في العمل وهو يدون الحسابات في أحد مخازنهم والعمال ينقلون البضائع من وإلى المخزن.

جبريل في وسط انشغالهم: مراتك عاملة إيه النهارده؟

حاتم وهو يكمل ما بيده: الحمد لله أحسن، وارتاحت أكتر لما وديت الولاد عند حماتي.

جبريل بتساؤل: هي مراتك كانت مصممة كده ليه إن الولاد يمشوا؟ دي كانت هتموت نفسها.

حاتم بضيق وحزن: هي كل ما عيد ميلاد حد منهم يقرب تعمل كده، خايفة يحصل زي اللي حصل لزياد يوم عيد ميلاده.

جبريل بوجه حزين: ربنا يصبرها ويصبرنا، عندها حق، خاف على ولادك يا حاتم، كفاية اللي حصل وكفاية إن أخوك اتوفي هو كمان وما سابش ذرية.

ظهر الضيق سريعًا على وجه حاتم ولكن سرعان ما تدارك نفسه قائلًا بجمود: الله يرحمه.

جبريل بتنهيدة: الله يرحمه، كان زينة الشباب، وكان شايل عني ياما.

حاتم وهو يضع قلمه بعصبية: وأنا مش شايل معاك يا بابا؟! ولا كل اللي باعمله ده ملهوش قيمة عندك.

جبريل باستغراب: هو أنا كل ما أشكر في أخوك ولا أجيب سيرته تتعصب كده ليه؟

أمسك حاتم قلمه وهو يشيح بيده في ضيق قائلًا: مفيش حاجة.

وانهمك بعمله ليداري غيرته وعيناه اللتان تشعان حقدًا وغيظًا من شخص قد توفاه الله جسداً ولكن روحه باقية وحية في وجدان أبيه وكل من عرفه وأحبه.

****

كان مساء الخميس قد حلّ عندما وصلا كمال وابنته إلى البلدة وأصبحت الشوارع خالية إلى حد كبير من المارة فكلٌ سكنَ إلى داره، وضع كمال كوب الشاي الفارغ على المنضدة التي أمامه قائلًا: شكرًا يا عمدة.

العمدة بترحاب: العفو يا أستاذ كمال، ده إنتوا نورتوا البلد.

و نظر إلى ليلى قائلًا بترحاب: ما شربتيش شايك ليه يا بنتي؟

ابتسمت له ليلى بهدوء ولم تجب، فقال كمال بسرعة: معلش، أصلها ملهاش في الشاي يا عمدة، المهم حضرتك لقيت لي المكان اللي هنقعد فيه زي ما طلبت منك المرة اللي فاتت؟

العمدة: للأسف، إنت شايف بنفسك مندرتي مهدودة عشان نصلح سقفها مفيش مكان خالي الفترة دي، بس داري تحت أمرك لحد ما نشوف مكان.

نظر كمال حوله فوجد البيت يعج بأشخاص كثيرة منهم أبناء العمدة الذكور.

فنفض الفكرة عن رأسه قائلًا بحسم: شكرًا يا عمدة، بس للأسف مش هينفع.

همهم العمدة ثم أردف ببترد: مفيش غير بيت كان ملك واحدة قريبتي لو تحب تقعد فيه بس...

كمال بتساؤل: بس إيه؟ هي قاعدة فيه؟

العمدة بأسف: لا للأسف، هي اتوفت من خمس سنين، وأني ورثت البيت ده عنها.

كمال بفهم: طيب حضرتك تحب تاخد إيجار كام على البيت كل شهر؟

العمدة وهو يلومه: عيب يا أستاذ كمال، ده إنت ضيفنا، وما بين الخيرين حساب.

كمال برفض: شكرًا، بس لازم طبعًا أدفع إيجار، يا كده يا هنسافر تاني.

العمدة بسرعة: لأ طبعًا، ده إنتوا نورتونا، تمشوا إزاي.

ثم أردف بتردد: أصل يمكن برضه البيت ما يعجبكش، أصله بصراحة حصل فيه حريق قبل كده.

كمال: يا ساتر يارب، ليه؟ وكان حد فيه؟

العمدة وهو يداري أمرًا: لأ، إحنا فوجئنا مرة واحدة بالحريق بعد وفاة صاحبتها، وعلى العموم أنا رممته وجهزته من جديد، أنا صارحتك عشان لو مش عايز تقعد فيه، بيتي تحت أمرك.

كمال وهو يحمل حقائبه: لا شكرًا يا عمدة، إحنا هنقعد هناك مؤقتًا، لحد ما نلاقي مكان تاني إن شاء الله.

نهضت ليلى مع والدها وقال العمدة بسرعة: طيب لسه بدري.

كمال بشكر: لأ شكرًا، كفاية كده وإحنا محتاجين نرتاح كمان.

العمدة بسرعة: طيب استنوا أخلي حد يوصلكم، أصل البيت بعيد عن هنا شوية.

نادى العمدة على أحد الخفراء، فأتى وقال: وصّل الضيوف للبيت الشرقي.

الخفير بتردد خائفًا: أنهي بيت يا حضرة العمدة؟

العمدة بزعيق: بيت وردة يا واد، إيه مش عارفه؟

الخفير متمتمًا: يا منجي من المهالك يارب، أني كنت حاسس إن الليلة دي مش هتعدي على خير.

العمدة بتعنيف: إنت لسه واقف! يالّا أجري هات الكريته بتاعتي ووصل الجماعة.

الخفير مسرعًا: حاضر حاضر.

وما هي إلا دقائق وانطلق الحصان يجر العربة التي تقل كمال وليلى إلى مكانُامتهم الجديد بمنزل ورده.

****

٣- حقد وانتقام

****

"يقولون دائمًا أن الأرواح الهائمة وخاصة المغدور بها، تنجذب نحو الأشخاص اللذين يحملون من الحزن كمًا هائلًا، اللذين ذاقوا فراق الأحبة وعذبتهم نيران الفَقد"

(عودة إلى الماضي)

دلف شاب في العشرينيات من عمره إلى مكتب الحاج جبريل قائلًا بابتسامة مشرقة: وحشتني يا حجوج.

نهض جبريل من مكانه مسرعًا واحتضنه بشوق قائلًا: حسام.

أخذه من يده وأجلسه بجواره قائلًا بعتاب: إتأخرت عليا المرة دي.

حسام باعتذار: أنا أسف يا بابا، بس أنت عارف الملجأ والجمعية واخدين كل وقتي.

جبريل بإعجاب: ولا يهمك يا حبيبي، المهم فعل الخير.

حسام بتساؤل: أومال فين حاتم؟

جبريل بضيق: والله حاتم أخوك تاعبني أوي معاه.

حسام بترقب: ليه بس يا بابا، حصل حاجة تاني؟

جبريل بتأفف: هيحصل إيه أكتر من اللي حصل من ساعة ما بنت عم العمدة دي طفشت وسابت البلد عشان تخلص من مضايقاته وهو سايب شغله وحالنا وقاعد يدور عليها.

حسام بضيق: معلش يا بابا، هو معذور؛ شكله كان بيحبها جامد.

جبريل بثقة: ولا بيحبها ولا حاجة؛ هو بس مش هاين عليه إنها قالت له لأ بحب واحد تاني.

جز حسام على أسنانه ليمنع غصة ألم كادت تظهر في حديثه وقال بتماسك: معلش يا بابا اعذره برضه وأنا هادور عليه واحاول أطلعه من الحالة دي ويرجع شغله، حاتم طيب ويستاهل كل خير.

جبريل بتنهيدة: شوف إنت بتقول عليه ايه، وهو ما بيبقاش طايق لك كلمة، رغم إنكم توءم بس فرق السما والأرض، ربنا يحفظك ويهديه يارب.

حسام باقتراح: طاب ما تجوزه يا بابا؟

جبريل وهو يمسك بأحد الملفات يراجعه: أنا برضه فكرت في كده وبادور له على عروسة وربنا يسهل.

حسام وهو يقبل يده: طيب استأذن أنا بقا هاروح أريح من السفر واشوف حاتم فين.

جبريل برضا: ماشي يا ابني، وأعطاه الملف الذي بيده مكملًا: خد الملف ده إدرسه وقولي رأيك، بما إن أخوك مش فاضي لنا.

تناول الملف من يده قائلًا بطاعة: حاضر يا حاج.....

بابا حضرتك معايا؟

جبريل بتلعثم: هاه، بتقول حاجة يا حسام؟

حاتم بمرارة: حسام برضه، حتى الموت ما قدرش يخليك تحبني ربع حبك ليه؟!

جبريل بدهشة: بتقول إيه يا حاتم؟! إنتوا الاتنين ولادي ومَعزة واحدة، أنا بس افتكرت أخوك فاتلخبطت.

حاتم بعصبية وهو ينهض من مكانه: لأ مش مَعزة واحدة طول عمرك بتفضله عني، كل الناس كانت بتحبه أكتر مني كأني شيطان وهو ملاك رغم إننا توءم بس مكنش بيجمعنا غير الشكل وبس.

أحمر وجه حاتم غضبًا وهو يتحدث وأحمرت عيناه كأنها جمر مشتعل من الحقد والكراهية وأمسك ذراعه بألم.

فنهض جبريل من مكانه قائلًا وهو يربت علي كتفه بدهشة: طيب إهدي بس، مكنتش زلة لسان والله ما فيه حاجة من اللي بتقولها دي.

حاتم بثورة وغضب: لأ فيه.

وأسرع يغادر المكان تاركًا والده بين حسرته على ولده المتوفي في ريعان شبابه وولده الذي يحتاج طبيبًا نفسيًا للتأهيل، بل مصحة نفسية بأكملها.

****

وقفت ليلى على الطريق العمومي تنتظر الحافلة وبجوارها والدها.

كمال بحنان: خلي بالك من نفسك يا ليلى ولو حد ضايقك قوليلي بس وأنا هاروح أخلص لك الموضوع.

أومات برأسها موافقة فقال مسرعًا: تحبي أجي معاكي النهارده ولّا هتعرفي تروحي لوحدك.

أشارت بيدها علامة النفي، ففهم إنها تريد الذهاب بمفردها فقال بدعاء: ماشي يا حبيبتي ربنا يحفظك.

فجأة أرتفع صوت عفوي بطفولية قائلًا بسرعة وفرحة: إنتي ليلى؟

فزعت ليلى من المفاجأة وسقطت كتبها أرضًا وهي تتشبث بوالدها.

كانت المتحدثة بسمة وهي تقفز بفرح وعفوية أمامها وبجوارها أخيها عادل.

عادل باعتذار: إحنا متأسفين أوي أصل أُختي هبلة شوية.

وضربها بخفة على شعرها، فقالت بسمة بسعادة: أنا اسفة والله مكنتش أقصد أخضك، بس من فرحتي إني لقيت حد من سني ونبقي أصحاب وكده.

ابتسمت لها ليلى وهي تنظم أنفاسها وانحنت مع والدها تجمع كتبها وساعدهم عادل.

صافح عادل كمال قائلًا: بكرر اعتذاري مرة تانية يا أُستاذ كمال.

كمال بابتسامة: ولا يهمك، أكيد الأنسة مكنتش تقصد، بس أنا شوفتك قبل كده صح؟

عادل بتنحنح: أيوه أنا عادل مدرس مع حضرتك في المدرسة.

كمال بابتسامة: تشرفنا.

مدت بسمة يدها إلى ليلى قائلة بسعادة: أنا بسمة ومعاكي في المدرسة إن شاء الله.

صافحتها ليلى بابتسامة وهزت رأسها مرحبة.

بسمة بعفوية: إنتي ما بترديش عليا ليه إنتي لسه زعلانة مني؟

خفضت ليلى رأسها خجلًا وتنحنح كمال قائلًا: معلش، أصل ليلى عندها مشكلة الفترة دي وما بتتكلمش.

لكز عادل بسمة في ذراعها فتأوهت وقال بصرامة: اخرسي بقا دايمًا كاسفاني كده.

بسمة بتأنيب ضمير: أنا أسفة مكنتش اقصد والله

كمال بأبوه: ولا يهمك يا بنتي، أنا عارف، وهمتك معايا وإنتي شقية كده عايزك تنطقيها.

بسمة بسرعة مرحة: بس كده من عينيا.

أتت الحافلة في هذه اللحظات فأمسكت بسمة بيد ليلى ليركبا قائلة: يلا سلام بقا.

كمال مسرعًا: خدي بالك منها يا بسمة.

بسمة من الحافلة: في عينيا يا عمو.

لوحت ليلى لوالدها وغادرت الحافلة ومشيا عادل وكمال في اتجاه عملهما وهما يتجاذبان أطراف الحديث.

أتى الليل ولجأ جميع أهل القرية إلى منازلهم؛ لتحميهم من الهواء البارد الذي بدأ يعصف بالمكان وتتمايل معه الأشجار والزروع، فيجعل المكان موحشًا كئيبًا خاصةً في الليل مع تساقط أوراق فصل الخريف، طرقت الخادمة باب غرفة سعاد وهي تحمل كوبًا من الينسون الدافئ قائلة وهي تقدمه: اتفضلي يا ست سعاد.

تناولت سعاد الكوب منها قائلة: شكرًا.

غادرت الخادمة وجلس حاتم بجوارها قائلًا بترقب: لسه زعلانة مني؟

سعاد وهي ترتشف من الكوب: خلاص يا حاتم اللي حصل حصل.

حاتم: تبقي لسه زعلانة مني، قلت لكِ مكنتش أقصد ولا زقيتك حتى.

سعاد بهدوء: عارفة خلاص يا حاتم دي كانت غلطتي.

حاتم بخفوت: كويس إنك عارفة؟

وضعت الكوب على المنضدة المجاورة لها وقالت بفضول: بتقول حاجة؟

حاتم بابتسامة مصطنعة: لأ مفيش، المهم مرتاحة دلوقتي عملت لكِ اللي إنتي عايزاه أهو.

سعاد براحة: الحمد لله، ما دام الولاد بعاد عن هنا أنا مرتاحة، بقولك هات التليفون كده أكلم ماما عشان نقول لطارق كل سنة وهو طيب.

حاتم وهو يأتي بالهاتف: آها صحيح ده هيكمل تمن سنين بكرة إن شاء الله.

سعاد وهي تدير قرص الهاتف بابتسامة حزينة: آها بعد اتناشر بالليل هيبدأ تمن سنين حبيبي، كان نفسي زياد يكون معانا.

حاتم بألم: الله يرحمه ويخلي لنا طارق وياسمين.

انتظرت كثيرًا من الوقت ثم قالت بقلق وهي تغلق الهاتف: ماما ما بتردش.

حاتم بهدوء: تلاقيهم ناموا ولاحاجة

هزت كتفيها بقلق قائلة: جايز.

ارتفع صوت سيارة تدخل من بوابة المنزل إلى الحديقة.

فنهض حاتم قائلًا: ده أكيد بابا وصل، أنا رايح أقابله.

خرج وتركها فأمسكت كوبها من جديد تشرب منه ولحظات وفُتح باب الحجرة ودخل أطفالها قائلين بسعادة ومرح: ماما وحشتينا، سقط الكوب من يد سعاد على الفراش وسقط معها قلبها وهي تنظر بصدمة لطارق وياسمين اللذان قفزا فوقها يحتضناها.

ياسمين ببراءة: مالك يا ماما، إيه زعلتي إننا جينا؟

سعاد بصوت منخفض مصدوم: إنتوا إيه اللي جابكم دلوقتي وجيتوا إزاي؟

دخل شاب بملابس ضباط الشرطة ومعه حاتم قائلًا: أنا جبتهم يا سعاد.

سعاد بصدمة: أكرم إنت نزلت امتى؟

أكرم وهو يجلس بجوارها: ألف سلامة عليكي الأول، أنا نزلت إمبارح بس وكنت ناوي أقعد أسبوع، بس للأسف استدعوني عشان مهمة مستعجلة.

سعاد بصدمة: وماما فين؟

أتت خادمة استدعاها حاتم لتنظف ما أسقطته سعاد.

وتابع أكرم بهدوء: ماما سافرت الصبح لنوال أُختك في الفيوم عشان بتولد وسابت الولاد معايا بس للأسف جاتلي مهمة وما أقدرش أسيبهم في البيت لوحدهم.

ونهض قائلًا بهدوء: أنا مضطر أمشي بقا عشان إتأخرت: محتاجه حاجة؟

أمسكت يده بقوة وهو يغادر قائلة بتوسل وهي على وشك البكاء: خد الولاد معاك.

أكرم بدهشة: أخدهم فين يا سعاد؟! بقولك مأمورية يعني ضرب نار وكمان في الواحات، هو أنا رايح أتفسح؟!

نزلت دموعها بغزارة وهي تترجاه :وديهم أي حتة بالله عليك خدهم معاك.

اندهش أكرم من حالها.

فتدخل حاتم قائلًا وهو يهديها: خلاص بقا يا سعاد، الصبح يطلع بس وهاوديهم لأي حد من قرايبنا.

سعاد بصراخ: الليلة دي بالذات ما بياتوش في البلد دي.

أكرم بدهشة: هو في إيه؟

حاتم بسرعة: ولا حاجة، روح إنت شوف شغلك.

أكرم وهو يهدئ شقيقته : والله لو ما كنت متأخر كنت خدتهم وديتهم حتى لماما في الفيوم، بس أنا لازم أتحرك عشان ألحق أوصل بسرعة بس أنا برضه مش فاهم مالك؟

سعاد وهي تبكي بمرارة وتغطي وجهها براحتيها: زياد يا أكرم زياد.

أكرم بدهشة أكبر: زياد ... و صمت قليلًا ثم أردف بتوتر: ماله؟

أخذه حاتم من يده إلى خارج الغرفة قائلًا: روح إنت شغلك وأنا هاهديها.

أكرم بقلق: هو في إيه يا حاتم؟

حاتم بتنهيدة: من ساعة زياد ما اتوفي يوم عيد ميلاده التامن وهي بتترعب كل ما عيد ميلاد طارق أو ياسمين يقرب بتقولي حاسة إن هيحصل لهم حاجة لا قدر الله.

أكرم باستغراب : غريبة! أنا عمري ما سمعت الكلام ده غير منك.

حاتم: أكيد مكنش حد بيحكي لك عشان إنت دايمًا مسافر.

أكرم وهو ينظر في ساعته: طيب أنا مضطر أمشي، خلي بالك منها يا حاتم بالله عليك وعينك علي الولاد.

حاتم وهو يهبط معه درج المنزل الداخلي: إنت هتوصيني، ولادي دول كل حياتي يا أكرم.

أكرم بدعاء: ربنا يخليهم لك يارب وارتدي قبعته قائلًا وهو علي الباب: سلام بقا.

ذهب حاتم ليوصله إلى سيارته بينما احتضنت سعاد أطفالها برعب وفزع واتسعت ابتسامة في الظلام.

****

جلست ليلى في شرفة حجرتها تقرأ في أحد الكتب وبدأ النعاس يداعب عينيها فأغلقت الكتاب وهي تفرك عينيها بتثاؤب وفجأة لمحت فتاة صغيرة لم تتجاوز العشرة أعوام من عمرها ترتدي فستان أبيض وشعرها أحمر مسترسل علي كتفيها وبشرتها بيضاء صافية، تقفز بطفولة ومرح بالقرب من شجرة في حديقة المنزل، توقفت الفتاة عن اللعب عندما لاحظت أن ليلى تنظر لها بدهشة وخوف فقد تجاوزت الساعة الحادية

عشرة مساءً وربما منتصف الليل، نظرت لها الفتاة وابتسمت لها بعذوبة وظهرت غمازات وجهها الجميل بالابتسامة مع جمال عيونها الرمادية.

سقط الكتاب من يد ليلى أرضًا في الغرفة فأنحنت تلتقطه بسرعة لتهرب من مواجهتها وسمعت صوتًا أنثويًا وهي في أرض الغرفة يقول بصرامة: زهرة تعالى هنا.

الفتاة بسرعة: حاضر يا ماما.

أغمضت ليلى عينيها بخوف وتمنت لو كانت الشرفة مغلقة.

ثوان ولم تسمع أصوات أخرى فأسرعت بغلق النافذة وأنكمشت في سريرها بخوف.

نام طارق وياسمين بجوار سعاد التي بدأت تسقط رأسها من الارهاق وكثرة البكاء مع مرضها وجسدها الذي يطلب الراحة.

ربت حاتم على كتفها قائلًا: نامي يا سعاد أنا صاحي جنبكم أهو ما تخافيش.

سعاد وهي تمسح دموعها التي ما زالت تتساقط: ما اقدرش أنام؛ قلبي مش مطمن.

حاتم بإشفاق: إنتي كده بترهقي نفسك، والمسكنات اللي بتاخديها أصلًا محتاجة راحة وهيخلوكي تنامي حتي لو قاومتي.

سعاد بعناد: لأ أنا هافضل صاحية.

حاتم بنفاذ صبر: براحتك.

ومدّ ساقيه على أريكة بجوارهم وخلع منطاره الطبي.

بدأ الهواء تزيد وتيرته بالخارج، وصوت حفيف الاشجار والزروع يبعث في النفس الرهبة مع الظلام والليل الهادئ كالعادة في معظم قرى مصر،مرّ الوقت بطيئًا على سعاد، وبدأت تفقد السيطرة على اتزانها وغفت بجوار أطفالها، وكذلك غفا حاتم على الأريكة من الإرهاق.

دقت الساعة الثانية صباحًا في ردهة المنزل المظلمة وخرجت إحدى الخادمات من غرفتها المعدة لها هي وزميلتها في العمل وذهبت إلى الحمام.

دقائق وخرجت بعد قضاء حاجتها ونظرت لباب المنزل فأحست إنه ينغلق ببطء وهدوء، وهناك ظِل يبتعد في الخارج بل اثنان، فوضعت يدها على فمها قائلة بخوف: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

أسرعت ركضًا إلى غرفتها فوجدت زميلتها قد تدثرت بغطائها من رأسها حتى قدميها بإحكام وتغط في نوم عميق، فأغلقت الباب بإحكام خلفها وهي تندس في فراشها برعب كأنها تنشد منه الأمان.

****

مرت ساعات وكلٌ في سباته وأشرق الصباح مطلًا بنوره على القرية.

دقت بسمة باب منزل ليلى، ففتح كمال لها الباب قائلًا بترحاب: أهلًا يا بسمة، ادخلي يا بنتي.

بسمة برهبة من المكان: شكرًا يا عمو، معلش ممكن تنادي ليلى عشان هنتأخر.

كمال مناديًا: حاضر، يا ليلى.. يا ليلى.

خرجت ليلى من غرفتها وهي تغلق حقيبتها، سلمت على والدها وانطلقت مع بسمة إلى المدرسة.

مشيا سويًا في الطريق المؤدي إلى الطريق العمومي.

بسمة بتساؤل حذر: هو أنتوا مرتاحين في البيت ده يا ليلى؟

نظرت لها ليلى بتساؤل وهزت رأسها بمعنى: لمَ السؤال؟

بسمة بتردد: مفيش، ده مجرد سؤال عادي.

نظرت لها ليلى بشك وفجأة كادت بسمة أن تسقط أرضًا؛ بعدما انفك رباط حذائها.

التقطتها ليلى كي لا تسقط بينما قالت بسمة بضيق: يوه، أنا باكره الجزمة دي عشان كده، كل شوية رباطها يتفك.

انحنت بسمة لتربطه مرة أخرى بينما علا نعيق أحد الغربان فوق شجرة كبيرة فنظرت ليلى إلى السماء لتجد غرابًا أسودًا يحلق بجناحيه الكبيرين فوقهما بعد مغادرة شجرته.

قُبض قلبها من رؤيته وسرعان ما لمحت شيئًا غريبًا على حافة ترعة المياه تحت الشجرة الكبيرة.

اقتربت ليلى ببطء من المكان تاركة بسمة خلفها تعدل حذائها.

وقفت أمامه واتسعت عيناها برعب وهي تطلق شهقة فزعة وسقطت حقيبتها أرضًا وهي تصرخ بفزع، صرخة سمعها كل أهل القرية في هدوء الصباح.

صرخة أعلنت معها بدء سماع صوت ليلى مرة أخرى.

****

٤- من الجاني؟

****

"أحيانًا يختفي رد الحق في قلب الوجع، أحيانًا نرى الفعلة شنعاء لكنها العدالة، عدالة السماء والجزاء من جنس العمل، ومهما بدا أمامك المبُتلى مظلومًا، فقد تراه شيطانًا إذا نظرت في أعماق قلبه الأسود"

علا نحيب سعاد وصراخها في المنزل وهي تبكي بانهيار وحولها بعض أقارب حاتم من النساء.

سعاد ببكاء وهي تتشنج: ابني يا ناس، إنت فين يا طارق، يا حرقة قلبي عليكوا يا ولادي.

إحدى النساء باشفاق: ما تعمليش في نفسك كده يا حبيبتي، هما لسه بيدوروا عليه، وإن شاء الله يرجع بخير.

سعاد بثقة في وسط بكائها: مش هيرجع، أنا قلبي كان حاسس، إحنا علينا لعنة دم بتقتل في ولادي.

ولطمت خديها قائلة: أنا كنت حاسة وماحدش صدقني، ياريتني كنت موت قبل اليوم ده.

رفعت إحدي النساء كفيها عن وجهها قائلة بانفعال: حرام عليكي! إنتي كده بتكفري.

ازداد بكائها وهي تلتفت حولها بفزع قائلة: ياسمين بنتي فين؟ ودتوها فين؟

السيدة وهي تهدئها: ما تقلقيش، بنتك في بيتي مع مرات ابني؛ ما ينفعش تشوفك كده.

سعاد بصراخ: هاتولي بنتي، أنا عايزة ولادي، إنت فين يا طارق؟ رحت فين يا قلب امك؟ ده أنا كنت منيماك في حضني، إزاي اصحي مالأقش جنبي ازاي؟

في هذه الأثناء كان جبريل يقف أمام إحدي الغرف في مشفى ومعه بعض رجاله وأقاربه.

ثوان وخرج حاتم من الغرفة وعيناه محمرة بشدة ووجهه يبدو عليه الصدمة.

جبريل بتساؤل خائف من سماع الإجابة: هو يا حاتم؟

لم يجبه حاتم وقد انسالت دموعه بصدمة.

هزه جبريل بعنف قائلًا بثورة: رد عليا، ابنك التاني مات هو كمان يا حاتم؟!

حاول أحد الرجال تهدئته بينما أسند حاتم ظهره إلى أحد الجدران وخلع منظاره وقال منفجرًا بالبكاء: طارق مات يا بابا غرقان زي زياد بالظبط.

اختل توازن جبريل عند سماعه العبارة؛ فأسنده أحد الرجال قائلًا بلهفة: سلامتك يا حاج، اقعد ارتاح.

أجلسه الرجال على أحد الكراسي وهم ينظرون له بإشفاق.

مال أحدهم على أُذن من يجواره قائلًا باستغراب: هو إيه الحكاية؟! ده تاني عيل ليهم يموت بنفس الطريقة؟

الرجل الآخر بصوت منخفض: فيه حاجة تانية مش واخد بالك منها.

نظر له الأول بتساؤل...

فتابع: زياد مات وهو عنده تمن سنين وتقريبًا الواد ده كمان عنده تمن سنين!

اتسعت عيون الأول بدهشة: تصدق عندك حق، يعني نفس السن ونفس الموتة وكمان في نفس المكان الموضوع ده وراه حاجة، أكيد مش صدفة.

هز الآخر كتفيه بحيرة بينما أتت الشرطة لتحقق في الأمر، وتأخذ أقوال حاتم وجبريل بعدما عاينت موقع الحادث.

رقدت ليلى على أحد الأسرّة في غرفة بنفس المشفى وقد غُرس في ذراعها محقن ينزل إليه محلول ببطء.

جلس بجوارها كمال وهو يمسك بيدها وينظر لها بحنان وحزن داعيًا الله عز وجل أن يشفيها ويحفظها له.

بينما جلست بسمة مع عادل في أحد الأركان وهي تبكي بصمت.

احتضن عادل رأسها إلى صدره قائلًا باشفاق: خلاص بقا يا بسمة، كفاية عياط.

بسمة وهي تمسح دموعها بحرقة: المنظر كان صعب أوي يا عادل، حتى ليلي ما استحملتش صرخت وأغمي عليها في ساعتها.

عادل بإشفاق: خلاص بقا استعيذي بالله من الشيطان، ده قدره وانتوا ملكوش ذنب، ربنا يقومها بالسلامة يارب.

تأوهت ليلى بضعف وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة، فنظر لها كمال غير مصدقًا إنه سمع صوتها بعد كل هذه المدة.

أسرع عادل وبسمة إليهم، ففتحت ليلى عينيها وهي تنظر حولها بعدم تركيز.

كمال بفرحة: حمدالله على سلامتك يا حبيبتي.

ليلى بنصف وعي: أنا فين يا بابا؟

كاد قلب كمال يقفز من بين ضلوعه فرحًا وقال بصوت يملأه الفرح: ليلى إنتي بتتكلمي؟! سمعيني صوتك تاني يا حبيبتي.

استعادت ليلى وعيها دفعة واحدة ونهضت صارخة وهي تغطي وجهها بكفيها، شفته وهو ميت يا بابا، طفل صغير!

انخرطت في بكاء حار، فاحتضنها كمال بسرعة ليطمئنها فأكملت وهي تتشبث بثيابه

تنشد الأمان: كانت دماغه في الميه وجسمه بره يا بابا، زي ما يكون حد غرقه.

دخل الطبيب ومعه أحد الضباط ووكيل النيابة قائلًا: الحالة فاقت أهي يا فندم، ممكن حضرتك تاخد أقوالها دلوقتي.

كمال بعصبية: بنتي ما تقدرش تتكلم دلوقتي، إنتوا مش شايفين حالتها عاملة إزاي.

الضابط ببرود: ده شغلنا يا أفندم والموضوع فيه شبهة جنائية ولازم ناخد أقوال اللي اكتشفوا الواقعة.

الدكتور بسرعة لتهدئة الوضع: حضراتكم ممكن تاخدوا أقوال الآنسة التانية اللي كانت معاها على ما نجيب لها ميه ونهديها شوية عشان تعرف تتكلم.

وكيل النيابة وهو يزفر: مفيش مشكلة

وجلس يستمع لبسمة وهي تقص عليه ما حدث، بينما أتت إحدى الممرضات بكوب ماء وقرص مهدئ لليلى.

علا النحيب في منزل الحاج جبريل وانتهى أحد الأطباء من غرس حقنة مهدئة في ذراع سعاد التي بدأت تغيب عن الوعي.

ارتفع رنين الهاتف فأسرعت إحدى الخادمات ترد قائلة: الو

أتاها صوت والدة سعاد قائلة: الو اديني سعاد يا نعمات.

نعمات بتلجلج: الست الكبيرة، إزيك يا ستي؟

والدة سعاد باستغراب: الحمد لله، إيه الصوت اللي عندك ده؟ هو فيه حد بيعيط؟ اديني سعاد.

لم تستطع نعمات الرد فأتت إحدى السيدات وأخذت سماعة الهاتف قائلة: مين اللي بيتكلم يا نعمات؟

نعمات: دي أم ست سعاد، بتسأل عليها.

السيدة وهي تأخذ السماعة: طيب روحي إنتي.

و تحدثت قائلة: الو إزيك يا أم أكرم؟

والدة سعاد باستغراب أكبر: مين معايا؟

السيدة بتنحنح: أنا عمة حاتم يا أم أكرم عاملة ايه؟

والدة سعاد بترحيب: أهلاً يا حبيبتي الحمد لله عاملين ايه؟

عمة حاتم بتنهيدة: الحمد لله.

والدة سعاد بقلق: هي سعاد فين، عايزة أكلمها؟

السيدة بحزن: هي تعبانة شوية، مش هتقدر تكلمك دلوقتي.

أم سعاد بفزع: مالها هي كويسة والولاد فين؟

كانت عمة حاتم تبحث عن إجابات مقنعة وهي تتحدث مع والدة سعاد لتقنعها بوجوب قدومها دون معرفة ما حدث.

وقفت الخادمة مع نعمات شاردة بالمطبخ.

نعمات باستغراب: مالك يا بدور؟

بدور بتردد: أنا خايفة.

نعمات وهي تضيق عينيها باستغراب: ليه حصل إيه؟

بدور بخوف: أني عايزة أمشي من البيت ده، هادور علي شغل في مكان تاني.

نعمات بشك: ليه يا بدور؟ ده إنتي حتى كنتي مبسوطة معانا!

بدور وهي تلتفت حولها بخوف قائلة بصوت خافت: فيكي من يكتم السر؟

نعمات بصدق: في بير.

بدور بخوف: أني إمبارح قلقت بتاع الساعة اتنين كده، ورحت الحمام وأنا خارج للاوضة شوفت باب البيت بيتقفل من بره بشويش، وخيال سي طارق الله يرحمه بيبعد عن البيت.

نعمات بصدمة وهي تتظاهر بغسل الأطباق: و ما صحتيش حد ليه يا بدور؟ ليه سيبته يروح لقضاه؟

بدور وهي تجهش بالبكاء: خوفت، خوفت قوي حسيت إن ركبي سابت، لإني اتخايلت بخيال كده معاه!

نعمات وهي تنظر بالحوض مخفية عينها به: خيال مين؟

بدور وهي تبكي: مش عارفة، أني اترعبت وطلعت أجري على الاوضة.

نعمات بصوت خائف: سلام قولًا من رب رحيم.

ثم أكملت بصرامة وهي تنظر لها: طيب ما تحكيش لحد تاني دلوقتي، أما نشوف هيحصل إيه، أحسن ياخدوكي في الرجلين وإنتي غلبانة.

بدور بخوف مسرعة: لأ لأ، أني مش هقول لحد أبدًا، إنتي عندك حق إحنا غلابة.

نعمات بهدوء: شاطرة، خلينا في حالنا يالّا شوفي الشاي اللي على النار أحسن.

أسرعت بدور إلى الموقد لتطفئه بينما ظلّت نعمات تنظر لها شرزًا بقلق.

****

نامت ليلى في فراشها، ودثرها كمال بغطائها قائلًا بحنان: عايزة حاجة قبل ما أنام يا حبيبتي؟

ليلى وهي تحاول النوم: شكرًا يا بابا، بس ممكن تشغلي الراديو على القرآن، بس قبل

ما تمشي؟

كمال بابتسامة وهو يتجه للمذياع: بس كده حاضر.

علا صوت القرآن الكريم في الغرفة وأغلق كمال الأنوار وهو يُقبِّل جبينها قائلًا: تصبحي على خير.

أغمضت ليلى عينيها قائلة باسترخاء: وحضرتك من أهله.

أغلق كمال الغرفة خلفه مغادرًا، ومرَّ وقت لم تدرِ ليلى مقداره، وصوت القرآن بالغرفة، وكادت أن تدخل في سبات عميق عندما أحست بهواء خفيف بالحجرة وحركة أيضًا، فتحت عينها باستغراب وهي تولي ظهرها للنافذة، فهي واثقة أن والدها لم يفتحها اليوم وتشبثت بغطائها في خوف وهي تغلق عينها بقوة.

وفجأةً توقف صوت الراديو فوضعت يدها على فمها بخوف أكثر تكتم شهقتها وشعرت أن أحدًا جلس على طرف فراشها تحت قدميها.

سمعت صوت أنثوي يقول بعذوبة: ليلى، أنا عارفة إنك صاحية، قومي كلميني، ما تخافيش مش هأذيكي.

شهقت ليلى برعب عند سماعها الصوت وسالت دموعها خوفًا.

الصوت مرة أخرى: قلت مش هأذيكي، أنا محتاجة لك، بس حذاري تصوتي أو تكشفي سري لحد، أي حد هيعرف سري ممكن يموت وتبقي قضيتي عليه.

ليلى بصوت متقطع وهي تدفن وجهها في غطائها: إنتي مين وعايزة مني إيه؟

الفتاة بهدوء: قومي بس وهقولك، عشان عارفة إنك هتساعديني.

اعتدلت ليلى في جلستها ببطء وهي تتحاشى النظر إلى مصدر الصوت وأضاءت الأباجورة بجوارها.

فقال الصوت: اطفى النور عشان تشوفيني: أنا ما بظهرش غير في الضلمة.

أطفأت ليلى الإضاءة وهي تدير رأسها ببطء متخيلة إنها ستري أسوأ منظر في حياتها ولكنها وجدت فتاة جميلة في العشرينيات من عمرها، تبتسم لها وهي تجلس على طرف السرير، شعرها أحمر مموج يمتد لآخر ظهرها تقريبًا، لملمت جوانبه إلى الخلف بوردة صغيرة مع غرة تنزل على جبينها تداعب عينيها الرماديتين فتجعلهما أكثر جمالًا.

ليلى بدهشة: أنا شوفتك قبل كده طفلة؟

الفتاة بضحكة خفيفة: ولحقت أكبر! دي زهرة بنتي.

تجولت بعيناها في الغرفة قائلة بشوق: دي كانت أوضتي قبلك على فكرة.

ليلى بانبهار ممتزج بالخوف: إنتي مين؟

الفتاة بابتسامة: أنا وردة اسمي وردة.

****

٥- ريحــان

****

"خلقنا الله لنكمل بعضنا، نعمر الدنيا، نساعد من يحتاج إلينا حتى وإن كان سرابًا في عقولنا فقط، اختص الله بعض البشر بالقدرة على المساعدة، فليس كل قلب يستطيع إنجاز المهمة فهي تحتاج فقط إلى قلب كريم"

احتضنت والدة سعاد ابنتها الغائبة عن الوعي وهي تبكي بصمت قائلة: يا حبيبتي يا بنتي شوفتي اللي محدش يقدر يتحمله.

دق باب الغرفة ودخلت نعمات تحمل هاتف المنزل قائلة: تليفون عشانك يا ستي.

والدة سعاد بعصبية: مش عايزة أكلم حد إمشي من وشي.

نعمات بحرج وهي تمتم: ست لسانها طويل صحيح.

ثم أردفت بصوت هادئ: دي ست نوال عايزة تطمن عليكوا.

أخذت منها الهاتف قائلة: طيب، روحي إنتي.

غادرت نعمات بينما وضعت والدة سعاد السماعة على أُذنها قائلة: أيوه يا نوال، إزيك يا حبيبتي وبنتك عاملة ايه؟

نوال بلهفة: الحمد لله يا ماما، سعاد عاملة إيه دلوقتى؟

والدتها بتنهيدة: أختك ربنا يتولاها وتقوم بالسلامة.

نوال بدعاء: يارب، وياسمين فين دلوقتي؟

والدتها: عند عمة حاتم، أنا بعت أكرم يجيبها من هناك عشان ناخدهم ونمشي.

نوال موافقة: أحسن طبعًا، أنا أصلًا عمري ما ارتحت لحاتم ده، ياريتها ما اتجوزته.

والدتها بحزن: يلا نصيبها الحمد لله، خدي بالك إنتي بس من نفسك وبنتك انتي لسه نَافسة.

نوال: حاضر يا ماما، بس ما عرفوش برضه مين اللي عمل من كده؟

فرت دمعة من عين والدتها قائلة: لسه، ياريتني ما سبتهم وكنت سمعت كلام أختك.

نوال بضيق: اللي حصل حصل يا ماما، أنا أسفة، عارفة إني شغلتك عنهم.

والدتها بصوت حزين: لا يا حبيبتي، ما تقوليش كده، ده النصيب.

نوال بحدة: بس أكرم لازم يفضل وراهم، يعرف إيه اللي بيحصل بالظبط، وسعاد لازم تطلق كفاية كده.

والدتها موافقة: هو ده اللي هيحصل إن شاء الله، يلا روحي شوفي بنتك، أنا سامعاها بتعيط.

نوال: حاضر، محتاجين حاجة يا ماما.

والدتها بتنهيدة: سلامتك يا حبيبتي مع السلامة.

وضعت سماعة الهاتف وقبّلت جبين سعاد بحنان داعية الله أن يربط على قلبها ويلهمها الصبر والسلوان.

****

الأيام الجاية مش هتقدري تشوفيني في البيت، لازم تخرجي لي برة في الجنينة.

أنهت وردة كلامها، فردت ليلى باعتراض: ليه؟ أنا ما اقدرش أخرج بالليل.

وردة بلامبالاة: اتصرفي، إحنا خلاص مصيرنا اتربط ببعض.

ليلى بغيظ من تحكمها: ليه يعني؟ أنا لو مش عايزة أساعدك مش هيهمني.

وردة بضحكة استهزاء: ما بقاش ينفع خلاص، أي حد أتكلم معايا مصيره بيرتبط بيا وممكن يتأذي هو أو أعز الناس عنده.

ليلى بصدمة: بابا؟!

وردة بمرارة: أيوة بابا، ولو مش مصدقاني اسألي أم ريحان.

ليلى بصرامة: إياكِ تفكري تقربي منه.

وردة بضحكة مريرة: مش أنا اللي بأذي، اللي أذاني هو اللي هيعمل كده، خلي بالك أوي.

ليلى بخوف: إختارتيني ليه؟

وردة وهي تغادر: بعدين هتعرفي، إسألي عن بيت أم ريحان، قولي لها أنا من طرف وردة، وزي ما قلت لك، بعد كده نتقابل في الجنينة.

انتبهت ليلى من شرودها على صوت بسمة قائلة: ليلى رحتي فين؟

ليلى بتلعثم: هاه، لا مفيش حاجة، باقولك إيه؟

بسمة: نعم.

ليلى بتردد: تعرفي واحدة اسمها أم ريحان؟

بسمة بدهشة: إنتي تعرفيها منين؟

ليلى لتداري أمرها: سمعت عنها، تعرفي ساكنة فين؟

بسمة بعدم تصديق وشك: سمعتي من مين؟

ليلى بضيق: يوه يا بسمة، هو تحقيق؟ تعرفي بيتها ولّا لأ؟

بسمة باستغراب: في إيه يا ليلي؟ أيوة دي جارتنا.

ليلى وتحسم أمرها: خلاص، وإحنا مروحين إبقي شاوري لي على البيت.

بسمة بشك من أمرها: حاضر، بس مش هتقولي لي عايزاها ليه؟

ليلى وهي تشيح بيدها وتفتح أحد الكتب: بعدين بعدين.

زادت الشكوك في قلب بسمة وظلت تنظر إليها بشك وريبة وهي تحدث نفسها قائلة بخوف: إيه، عفاريت البيت طلعوا عليكي ولّا إيه؟

****

دق باب الحجرة فقالت والدة سعاد بنفاذ صبر: إدخل.

فتح أكرم الباب ودخل و بيده ياسمين.

والدتهم بلهفة وهي تفتح ذراعيها: ياسمينه حبيبتي.

ارتمت ياسمين في أحضانها قائلة بخوف: أنا خايفة أوي يا تيتة.

جدتها لتهدئها: ما تخافيش يا حبيبتي.

ياسمين بحزن: هو أنا خلاص مش هاشوف طارق تاني؟ ولاد طنط اللي كنت عندها قالوا لي كده.

جدتها وهي تبكي: ربنا يديكي طولة العمر وتعوضي مامتك يا حبيبتي.

أكرم بإشفاق: كفاية عياط يا ماما عشان سعاد حتى.

دخل حاتم الغرفة وهو بهيئة رثة قائلًا بلهفة: ياسمين...

أخذها من أحضان والدة سعاد فجذبتها منه بعنف قائلة بصرامة: ابعد عنها، ما تلمسهاش.

حاتم بدهشة مترجيًا: بتقولي إيه يا طنط؟ دي بنتي ما بقاش ليا غيرها.

والدة سعاد بقسوة: أنا هاخد سعاد وياسمين عندي وهتطلق بنتي ومش هتشوف بنتك غير أما تعرف مين اللي قتل أحفادي.

حاتم بصدمة: دول ولادي، يعني قلبي أنا، هتعاقبيني كمان في اللي فاضلة لي؟!

وتابع بعصبية وهو يجذب ياسمين منها: هاتي البنت محدش هياخدها مني.

احتضنتها والدة سعاد بقوة وهي تقول بصراخ: ابعد عنها.

انفجرت ياسمين في البكاء فزعة بينما جذب أكرم حاتم إليه قائلًا بغضب: إنت هتتهجم على أمي وأنا واقف كمان؟!

حاتم بثورة: مش سامعها بتقول إيه؟

أكرم بغضب: بتقول اللي هيحصل، أنا سيبت لك أختي وولادها أمانة وأنت ما عرفتش تحافظ عليهم وبعدين أنا معرفش وراكم إيه مخلي كل ده يحصل وأختي تتعذب كل العذاب ده بسببه.

حاتم بثورة: هيكون إيه، ده نصيب وبرضه محدش هياخد بنتي مني، ده يبقي أخر يوم في عمركم.

وهمّ بجذبها مرة ثانية، فاشتد بكاء ياسمين واحتضنتها جدتها أكثر وهي تهدئها بينما أمسك أكرم بثيابه و هو يشل حركة يده خلف ظهره قائلًا لوالدته بصرامة: لميتي حاجة سعاد وياسمين يا ماما؟

والدته بسرعة: أيوه يا ابني، كل الشنط في عربيتك تحت.

أكرم بصرامة: خلاص خدي ياسمين وانزلي وأنا هاجيب سعاد وجاي وراكم.

تلوى حاتم في يده قائلًا بغضب ووجه محمر من الألم: سيبني يا أكرم والله هتندم على اللي بتعمله ده.

استطاع أن يستدير له أخيرًا وأمسك بملابسه هو الآخر لكي يتشاجرا.

دخل جبريل في هذه اللحظة قائلًا بصرامة: أكرم... حاتم، كفاية كده.

والدة سعاد باستعطاف: يرضيك كده يا حاج، ابنك بيتهجم علينا في بيتك.

جبريل باعتذار: حقك علينا يا أم سعاد.

واستدار لأكرم وحاتم اللذان تركا بعضهما احترامًا لقدومه.

جبريل بصرامة: اعتذروا لبعض حالًا و إلا مش هيحصل طيب.

اعتذروا لبعضهما البعض على مضض وقال جبريل بصرامة: سعاد و ياسمين هيروحوا طنطا مع الجماعة.

نظر له حاتم معترضًا، فأكمل جبريل: ده أحسن لهم الفترة دي؛ لأني المرة دي مش هعدي اللي حصل علي خير وأقول نصيب.

واستدار لوالدة سعاد قائلًا بصرامة: سيبي ياسمين تسلم على أبوها قبل ما تمشي.

استكانت والدة سعاد لطلبه وهيبته فأسرع حاتم واحتضن ابنته بحنان وشوق وهو ينفجر بالبكاء، والطفلة تمسح على شعره بحنان.

جبريل بألم: كفاية يا حاتم.

تركها حاتم فقبّل جبريل جبينها قائلًا: خدي بالك من نفسك يا ياسمين ومن ماما.

ياسمين ببراءة: حاضر يا جدو.

خرجت والدة سعاد من الغرفة بيدها ياسمين وحمل أكرم سعاد وهي ملتفة بغطائها تغط في نوم عميق بفعل الأدوية المهدئة المحقونة بها.

خرج بها أكرم خلف والدته تاركين حاتم خلفهم يبكي علي أطلال أسرته الضائعة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً عندما ارتدت ليلى البالطو الخاص بها ليقيها من البرد بالخارج، وحملت أحد الكتب لتغادر.

خرجت لوالدها فوجدته يحتسي الشاي بالردهة.

ليلى بتردد: بابا، تسمح لي أخرج.

استدار لها كمال بدهشة فوجدها بملابس الخروج فأحمر وجه ليلى خجلًا وتردد لأنها لم تعتد الكذب عليه.

كمال بدهشة وهو ينهض من على كرسيه: رايحة فين دلوقتى؟

ليلى بتردد: رايحة لبسمة، نسيت معاها كتاب مهم وعندنا امتحان الصبح.

كمال بتلقائية: طيب خليكي وأنا هاروح أجيبه.

ليلى بسرعة: لأ مش هينفع، أصل فيه حاجات في المنهج عايزة أسألها عليها؛ لأني مكنتش بحضر من أول السنة.

كمال بصرامة وهو يضع كوبه على المنضدة: خلاص هاجي معاكي ونرجع سوا.

ليلى لتهرب منه: خلي حضرتك مرتاح.

كمال وهو يحسم الأمر: مش هتخرجي دلوقتي لوحدك، ثواني هغير وجاي معاكي.

ودخل غرفته ليبدل ملابسه بينما قالت ليلى بحيرة وصوت خافت: وبعدين هتصرف إزاي دلوقتي؟

خرج كمال وليلى سويًا ومشيا في هدوء الليل حتى منزل بسمة، كان الطريق موحشًا في الظلام، حتى أن رعشة باردة سرت في جسد ليلى وهي تتشبث بذراع والدها.

كمال بضحكة: وكنتي عايزة تخرجي لوحدك.

وصلا إلى المنزل و دق كمال الباب ففتح عادل قائلًا بدهشة وترحاب: أستاذ كمال أهلًا وسهلًا، إيه الزيارة السعيدة دي.

دخل كمال وهو يقول بحرج: معلش جينا من غير معاد، بس ليلى كانت محتاجة شوية حاجات من بسمة.

عادل وهو يغلق الباب ويقودهم إلى غرفة الجلوس: البيت بيتكم يا أستاذ كمال، تشرفوا في أي وقت اتفضلوا.

وقال لليلى: نورتي يا آنسة ليلى.

ليلى بخجل: شكرًا.

جلسوا سويًا وأتت بسمة ووالدتها إليهم.

بسمة بفرح وهي تسلم على ليلى: أخيرًا بقالي صاحبه وبتيجي تزورني.

ضحك الجميع على كلامها وسلمت عليهما والدة عادل بترحاب.

دخلت بسمة ومعها ليلى إلى غرفتها بينما جلس كمال وعادل يتسامران.

ليلي بتردد: بسمة، أنا عايزة أخرج من غير حد ما يحس.

بسمة بدهشة: تخرجي! هتروحي فين؟

ليلى وهي تنظر في أحد الكتب لكي تخفي انفعالاتها: عايزة أعمل حاجة.

بسمة بشك: هتروحي لأم ريحان اللي سألتيني عنها النهارده؟

ليلى بتلعثم: هشوف، المهم هتقدري تساعديني ولّا لأ؟

بسمة بإصرار: لاما تقوليلي في إيه الأول؟

ليلى بضيق: بعدين يا بسمة، صدقيني مش هينفع دلوقتي.

بسمة بتنهيدة: خلاص تعالي معايا، بس خلي بالك من نفسك.

فتحت شباك غرفتها الذي يطل على شارع جانبي قائلة: اخرجي من هنا، وماحدش هيحس بس ما تتأخريش.

ليلى بسرعة وهي تقفز من النافذة: حاضر، شكرًا يا بسمة.

تابعتها بسمة بعينها وهي تبتعد وقالت بتساؤل: وصلتي لإيه إنتي كمان يا ليلى، البيت ده لعنة على كل اللي سكن فيه.

****

وصلت ليلى إلى المنزل الذي وصفته لها بسمة، كان منزلٌ صغيرًا قديمًا، قد تصدعت جدرانه وبابه الخشبي العتيق.

دقت الباب وانتظرت، فلم يجبها أحد، فدقته مرة أخرى ومر الوقت وهي تدق مرة ثالثة، تنهدت بضيق وكادت تغادر، لكنها توقفت عندنا سمعت صرير الباب وهو يُفتح ببطء.

ظهرت سيدة يبدو على وجهها الحزن والمعاناة رغم أن سنوات عمرها قد تجاوزت الأربعين بالقليل فقط.

السيدة بضعف: مين؟

ليلى بإشفاق على حالها: أم ريحان موجودة؟

السيدة بتحفز: أنا أم ريحان، اؤمريني.

ليلى بتردد: أنا جاية لك من طرف وردة.

اتسعت عينا السيدة بفزع وقالت: مين؟!

ليلى بسرعة: وردة قالت لي أقولك ....

قاطعتها السيدة بعصبية وكره: لا قالت ولا عادت، إمشي من هنا، لا عايزة أسمع ولا أشوف أي حد من طرفها، كفاية اللي حصل لابني.

ليلي بحرج: أنا أسفة لحضرتك بس...

احتبست بقية الجملة في حلقها بعدما صفعت السيدة الباب في وجهها بعنف.

نفخت ليلى بضيق ووجهها محمر خجلًا ودقت الباب مرة أخرى، فلم تعيرها السيدة اهتمامًا.

غادرت ليلى وهي تهمهم بضيق قائلة: قليلة الذوق.

وفجأة ظهر لها شخص في الظلام من جانب المنزل قائلًا بصرامة: إنتي مين؟ وعايزة من أمي إيه؟

صرخت ليلى بفزعة ونظرت له فوجدت شاب يكبرها بالقليل، إحدى ساقيه مبتورة ويمشي على الساق الأخرى وعكاز.

ليلى بخوف وهي تضع يدها على صدرها الذي يعلو و يهبط من خضتها: إنت مين؟

الشاب وهو يتفحصها من رأسها لأخمص قدميها: أنا ريحان.

****

٦- أخي حسام

****

أنا ريحان

انتهى الشاب من جملته وهو يتفحص ليلى من رأسها حتى أخمص قدميها.

ليلى وأنفاسها تنتظم: إنت ابن أم ريحان؟

ريحان بتفحص وابتسامة ساخرة من سؤالها: أكيد، إنتي مين؟

ليلى بتلقائية: أنا كنت جاية لها من طرف...

قطعت جملتها وهي تتذكر أن وردة لم تسمح لها بكشف السر لغير أم ريحان

لاحظ ريحان ترددها فقال بثقة: وردة صح؟

ليلى بشك ورهبة منه: عرفت إزاي؟

ضحك ريحان بخفة وهو يقول: محدش هيسأل علينا غير من طرف وردة.

ليلى بشك وخوف أكبر وهي تغادر: بعد إذنك.

ريحان بلهجة ذات معنى: مش عايزة تعرفي الحكاية اللي وردة بعتتك عشانها؟

توقفت ليلى عند سماع جملته ونظرت له بتساؤل قائلة: إنت بتتكلم عنها عادي كده، مش خايف تأذيك؟!

ريحان بأسى: أنا خدت نصيبي من الأذى خلاص، المهم اللي دخل في الطريق ده جديد زيك كده ما يتأذيش

ليلى بعدم فهم: مش فاهمة.

ريحان بنصيحة: مش لازم تفهمي دلوقتي، بس ما دام دخلتي في سكة وردة يبقي تخلي بالك من نفسك قوي، لأن حقها عند اللي معندهوش قلب.

ليلى بخوف: مش فاهمة برضه.

لم يجبها ريحان وقال: إنتي اسمك إيه؟

ليلى بخفوت: اسمي ليلى.

ريحان وهو يلتفت حوله: ماشي يا ليلى، زي ما قلت لك خدي بالك من نفسك وأما تحبي تسأليني عن أي حاجة هتلاقيني هنا أو هجيلك.

وأكمل قائلًا: إنتي ساكنة في بيت وردة صح؟

ليلى: أيوه.

وفجأة انتفضت وهي تنظر في ساعتها قائلة: أنا إتأخرت أوي لازم أمشي.

ريحان بهدوء: ماشي، بس زي ما قلت لك خدي بالك من نفسك.

ليلى وهي تشعر بالارتياح تجاهه: إنت حكايتك ايه؟

ريحان بأسى: بعدين، أكيد هنتقابل تاني.

ابتسمت ليلى له وهي تغادر قائلة: إن شاء الله، بعد إذنك.

ريحان بتنهيدة: سلام.

غادرت مسرعة إلى منزل بسمة ودقت الشباك بخفة، ففتحته بسمة بلهفة قائلة: كنتي هتودينا في داهية.

ومدت لها يدها تساعدها في الدخول من النافذة.

ليلى بتساؤل: إيه اللي حصل؟

بسمة وهي تزفر بارتياح: باباكي بقاله شوية بيسأل عليكي قلت له إنك في الحمام.

ليلي بشكر: برافو عليكي، شكرًا يا بسمة.

بسمة بفضول: العفو، كنت بتعملي إيه بره بقا؟

ليلى وهو تلملم كتبها: قلت لك بعدين يا بسمة.

سمعت ليلى صوت والدها ينادي فودعت بسمة وغادرت معه.

****

جلس جبريل مع أحد الضباط في مكتبه بالمنزل.

الضابط بثقة: زي ما قلت لك يا حاج، أكيد اللي بيعمل كده من جوه بيتك.

جبريل بحيرة: هيكون مين؟! البيت مفيهوش غير ابني وولاده والخدم.

الضابط بثقة : وليه ما يكونش حد من الخدم؟!

جبريل بحيرة أكبر: بس هيعملوا كده ليه أنا عمري ما أذيت حد؟!

الضابط بروتينية: ده هنعرفه أما نوصل لهم، المهم بس ما يحسوش إنك شاكك فيهم عشان يتعاملوا على طبيعتهم.

جبريل بتنهيدة: هحاول بس حق أحفادي لازم يرجع.

الضابط: إن شاء الله، أنا بس عايزك تكتب لي أسماء كل اللي بيشتغلوا في البيت وأنا هاعمل تحرياتي.

جبريل موافقًا: حاضر.

والتقط أحد الأوراق وبدأ يدون بها الأسماء

وقفت وردة في شرفة شقة بالقاهرة وبطنها المتكور أمامها، تسقي الزهور التي تزين شرفتها وهي تدندن بسعادة.

فُتح باب المنزل ودخل زوجها فأسرعت إليه زهرة وهي تتعلق برقبته قائلة بسعادة : بابا.

قبّلها والدها قائلًا بحب: وحشتيني يا زوزا.

وردة بابتسامة:: ومافيش حاجة لأم زوزا ولّا إيه؟

قبّلها زوجها من جبهتها قائلًا بحب: ده إنتي الحب الأول يا أم زوزا.

وملّس على بطنها المتكور قائلًا: أخبار عتريس إيه؟

وردة بضحكة: بيسلم عليك يا أبو عتريس.

زهرة بغضب طفولي: أبو زوزا يا ماما، أنا الكبيرة.

ضحك والداها بشدة وفجأة من وسط ضحكاتهم، صرخت وردة وهي تضع يدها علي بطنها بألم.

زوجها بفزع وهو يسندها بكلتا يديه : في إيه؟

وردة وهي تكتم آلامها: مش عارفة، حسيت بألم فجأة.

زوجها بقلق: طيب يالّا ننزل المستشفى.

وردة بصراخ وقد أحمر وجهها ألمًا: أنا شكلي هاولد خلاص يا حسام اااه.

ممكن أعرف إنتي صممتي إني أقابلك بره البيت ليه؟

انتبهت وردة من شرودها إلى ليلى التي أنهت جملتها وقالت بهدوء: إتأخرتي ليه؟

ليلى بغضب وهي تجلس بالقرب منها: ما ردتيش على سؤالي؟

وردة بهدوء: أنا بحب أقعد هنا، روحتي لأم ريحان؟

زفرت ليلى بضيق منها قائلة: إنتي ليه بتتعاملي ببرود كده؟

لم تعير وردة جملتها اهتمامًا وكررت سؤالها: روحتي لأم ريحان؟

ليلى وهي تزفر بضيق: أيوه، ست قليلة الذوق، تقريبًا طردتني، وبعدها قابلت ريحان.

لاحت ابتسامة على جانب فم وردة وقالت: وإيه رأيك فيه؟

ليلى وهي تهز كتفيها: شكله طيب، بس ما فهمتش ماله حزين كده، وكل شوية خلي بالك من نفسك!

وردة بمرارة: إيه ما خدتيش بالك من رجله كنتي فهمتي ماله.

ليلي بفضول: هو إيه اللي عمل فيه كده؟

أتت زهرة وجلست بجوار والدتها وهي تبتسم لليلى.

ملّست وردة على شعر ابنتها وقالت بأسى: اللي معندهوش قلب، اللي ما بيراعيش دم ولا دين، بس أم ريحان هي الي ظلمت ابنها، لو كانت سمعت كلامي مكنش حصل له كده، بس هي اتصرفت من دماغها وطمعت.

ليلى بتساؤل: طمعت في إيه؟

وردة بتنهيدة: في الفلوس، كانت فاكرة إنها هتأمن له مستقبله بالفلوس ومش مهم حقي أنا وولادي.

ليلى بضيق: أنا زهقت من الألغاز.

وردة: كل حاجة هتتعرف في أوانها، المهم إسمعيني كويس عشان أول خطوة في المشوار.

****

القاهرة ١٩٧٨

جري حاتم في أروقة إحدى المستشفيات بذعر وسأل إحدى الممرضات وهو يلهث: فيه واحد جه عندكم في حادثة النهارده اسمه حسام؟

الممرضة وهي تشير لإحدى الغرف: هتلاقيه هنا.

أسرع حاتم إلى الغرفة فوجد الطبيب والممرضة يجتمعون حول أخيه الذي غطت رأسه الضمادات.

أسرع حاتم إليه وهو يقول بأعين دامعة: حسام.

الطبيب بغضب: إنت إيه اللي دخلك هنا؟

حاتم وهو يبكي ويمسك بيد أخيه: أنا أخوه.

فتح حسام عينيه وقال بضعف: حاتم.

الطبيب بغضب: اخرج بره، الكلام ممنوع عنه، إنت كده بتأذيه.

همّ حاتم بالخروج وهويمسح دموعه فقبض حسام على يده قائلًا بضعف أكبر: لأ إستني لازم تسمعني.

الطبيب بغضب: الكلام ممنوع عنك.

حسام مترجيًا: لو سمحت يا دكتور، سيبني مع أخويا شوية إحنا لازم نتكلم.

الطبيب وهو يزفر: مش أكتر من خمس دقايق.

غادر الطبيب والممرضة وبقى حاتم مع أخيه.

حسام بتساؤل ضعيف: إنت عرفت منين إني هنا؟

حاتم وهو يمسك بيده : كنت رايح لك الجمعية والناس بلغوني، إنت كويس صح؟

حسام بضعف: الحمد لله، شكلها النهاية.

حاتم بفزعة: ما تقولش كده، إن شاء الله هتخف وتبقا تمام.

سعل حسام بشدة وقال: مش وقته، المهم لو حصلي حاجة خد مراتي وولادي معاك البلد.

حاتم بدهشة: إنت متجوز يا حسام ومخلف كمان؟!

حسام بصوت يكاد يبلغ شفتاه: أيوه روح الجمعية لحامد هناك وهو هيديك العنوان وعايزك تسامحني يا حاتم.

حاتم باستغراب: أسامحك على إيه؟

حسام وهو يسعل بشدة مرة أخرى: مراتي تبقا...

قطع كلامه وهو يشهق بشدة وأحمر وجهه.

جري حاتم بفزع إلى خارج الغرفة قائلًا دكتور يا دكتور.

أتى الطبيب مسرعًا وهمّ حاتم بالدخول معه مرة أخرى فمنعه الطبيب.

ظل حاتم بالخارج دقائق وخرج الطبيب وعلى وجهه الأسف.

نظر له حاتم بترقب فقال الطبيب بأسف: البقية في حياتك.

انتهت ذكريات حاتم فمسح دموعه وهو يقف في المقابر الخاصة بعائلته أمام قبر أخيه وأبنائه.

قال بتشنج من البكاء: سامحني إنت يا حسام، حق مراتك وولادك إتاخد مني في أعز ما عندي.

٧- حكايــة وردة

****

"غدر بي لأني رفضته، سحق قلبي لأني صفعته، صفعته صفعة أودت بكرامته من وجهة نظره، لا أدري إن كنت مخطئة في حقه أم لا ولكنني لم أوذيه في فلذة كبده مثلما فعل هو، أيعقل أن يكون الحب بالإجبار؟ أهو حبًا أم تملكًا؟ لو كان حبًا، ما أذى العاشق معشوقته آبدًا حتى وإن رفضته ولكن القلب الحاقد لا يعرف سوى الانتقام، جعلني روحًا هائمة، أمًا مكلومة، ظللت لسنوات روحًا تائهة مغدورًا بها حتى أتت هي، هي من ستأخذ حقي منه، حقي الذي فشل في إرجاعه مَن لجأت إليهم قبلها، فشلوا لأنهم طمعوا وظنوا به ولو أبسط الخير".

انتهت الفتاة ذات العشرون ربيعًا من تمشيط شعرها الأحمر المموج وخرجت لوالدتها في الصالة قائلة بابتسامة: صباح الخير يا ماما.

والدتها بحب: صباح الخير على أجمل وردة في الدنيا كلها.

جلسا يفطران سويًا فقالت الأم: هتخرجي النهارده ولّا حاجة؟

وردة بتساؤل: بتسألي ليه؟

والدتها وهو تتبتلع طعامها: أصل عمك العمدة، جايب لك عريس النهارده.

وضعت ما بيدها من طعام في طبقها قائلة بضيق: أوف بقا مش هنخلص من الموضوع ده.

والدتها باستغراب: ليه كده يا وردة، كل اللي في سنك في البلد اتجوزوا وما يجوش ربع جمالك حتى وإنتي قاعدة كده ما ينفعش يا بنتي.

وردة بضيق: ماما أنا معنديش مية سنة، لو سمحتي إقفلي الموضوع ده، أنا لما أحب أتجوز هجيبهولك وأقولك هو ده، مش هتجوز أي حد كده.

والدتها بتساؤل واثق: مين في حياتك يا وردة؟

وردة وهي تشيح بوجهها: أكيد هتعرفي يا ماما، بس فيه مشكلة الأول بنحاول نلاقي لها حل.

والدتها بصرامة: مشكلة إيه؟ ومين ده؟ أنا لازم أعرف دلوقتي.

وردة بتوتر: بعدين يا ماما، مش هينفع.

والدتها بعصبية: هو إيه ده اللي مش هينفع، أنا لازم أعرف دلوقتي، يا إما ورحمة أبوكي يا وردة لأوافق على العريس وأجوزك غصب عنك وماحدش هيقدر يوقفني.

فركت وردة كفيها بتوتر وقالت: ابن الحاج جبريل.

والدتها بدهشة: حاتم! أومال ليه بتصديه ومطلعة عينه؟

وردة بضيق مسرعة: حاتم إيه ده كمان، ده بني آدم غلس، لأ طبعا مش هو.

اتسعت عيني والدتها بفزع قائلة: اوعي يكون حسام.

وردة وهي تنهض من مكانها لتهرب من نظرات والدتها: وهما ليهم أخوات تانية، طبعا حسام.

نهضت والدتها خلفها وأمسكتها من ذراعها قائلة بعصبية: إنتي عارفة معنى كلامك ده إيه؟

وردة ببرود: ملهوش غير معنى واحد أنا وحسام بنحب بعض من ساعة ما كنا عيال، وكان هيجي يتقدم لي لولا سي حاتم ده طلعلي في البخت واتقدم الأول.

والدتها بعصبية وصوت عالٍ: إنتي كده هتولعي بيتهم حريقة وتوقعي الأخوات في بعض ويقولوا بنت الحاج أبو المكارم بقت خرابة بيوت.

وردة بصدمة : أنا خرابة بيوت يا ماما!

والدتها وهي تنهرها: أيوه هتبقي كده لو صممتي تتجوزي حسام، لازم تبعدي عنه وما دام رفضتي أخوه يبقي هو كمان لأ.

وردة بعصبية واعتراض: ده في شرع مين إن شاء الله، إزاي عايزين تفرقوا بين اتنين بيحبوا بعض عشان واحد أناني زي حاتم.

والدتها بصرامة: في شرع بلدنا وعرفنا، إحنا فلاحين، إوعي تفتكري عشان رحتي مدارس ولبستي فساتين وأبوكي الله يرحمه دلعك بقيتي بنت مدن، إنتي بنت فلاحين وهتمشي بأصولهم يعني هتمشي بيها.

وردة بثورة: أنا مش هتجوز غير حسام، حتى لو قعدت طول عمري من غير جواز، وهو وعدني إنه هيحل مشكلة حاتم، الموضوع وقت مش أكتر.

لطمتها والدتها على وجهها قائلة بصرامة: الظاهر إن أبوكي دلعك زيادة عن اللزوم عشان تقاوحيني كده وتعلي صوتك عليا كمان.

وردة بصدمة وهي تضع يدها على وجهها: إنتي بتضربيني يا ماما!

والدتها بصرامة وهي تدفعها نحو غرفتها: واكسر رقبتك كمان، إنتي عايزة تفضحينا.

دفعتها إلى داخل الغرفة قائلة بصرامة: من النهارده مفيش خروج وهتقعدي مع عريس النهارده ولو مناسب هاوافق عليه كمان.

أغلقت الباب عليها قائلة بصرامة: وإياكِ أعرف إنك كلمتي حسام أو شوفتيه حتي، هقول لعمك العمدة وهو حر فيكي ساعتها.

غادرت والدتها وتركتها تجلس خلف باب غرفتها وقد انسابت دموعها بهدوء، فهي لم تتوقع أن تكون ردة فعل والدتها بهذه القسوة، ظنت أنها ستساعدها كما كان سيفعل والدها لو مد الله في عمره حتي هذه اللحظة ولكنها عزمت أنه لا زوج غير حسام حتى لو كان الثمن حياتها وكل ما تملك.

افتتاح الجمعية والملجأ إمتى يا حسام؟

انتهى الحاج جبريل من سؤاله فوضع حسام كوب الشاي على المنضدة التي أمامهم في طاحونة للحبوب قائلًا: كمان شهر بالكتير يا حاج إن شاء الله.

جبريل بدعاء: على خيرة الله، ربنا يجعل فعل الخير فتحة خير علينا إن شاء الله.

حسام بدعاء: يارب يا بابا.

جبريل بتساؤل: مش ناوي تتجوز يا حسام بقا، عايز أفرح بيك إنت وأخوك.

حسام ليهرب من الموضوع: مش أما نحل مشكلة حاتم الأول يا بابا.

تنهد جبريل بأسى: أخوك مش ناوي يجيبها لبر مع بنت الحاج أبو المكارم، فضحني في البلد.

حسام بضيق: إعذره يا بابا يمكن بيحبها بجد.

جبريل بنفاذ صبر: ولا بيحبها ولا حاجة، إنت عارفه من صغره أناني ما بيحبش حد يقول له لأ وعايز ياخدها عافية.

حسام بضيق أكبر وغيرة: ربنا يهديه، بس هي قالت له لأ بدل المرة ألف مرة.

جبريل بضيق: وياريته بيحس على دمه، لأ جبلة وجايب لينا الفضايح ومخلي اللي يسوي واللي ما يسواش يتكلم عليه.

- هو مين ده اللي جبلة؟

انتهى حاتم من سؤاله وهو يقف على باب الطاحونة وينظر لأبيه بضيق وعتاب.

حسام لتدارك الموقف: مفيش حد يا حاتم، ده إحنا كنا بنتكلم في موضوع كده.

حاتم بغيظ: كنتوا بتتكلموا عليا وطبعًا يا سي حسام شعللتها كعادتك وقلبت بابا عليا.

حسام بدهشة: أنا يا حاتم!

حاتم بحقد: أيوه إنت، طول عمرك بتغير مني عشان أنا أحسن منك.

ضرب جبريل بقبضته بصرامة على سطح مكتبه قائلًا: حاتم، إنت إزاي تقول على أخوك كده؟

حاتم بكره: طبعًا ما حضرتك لازم تحامي له ما هو لسه موقع بينا طازة.

حسام بدهشة: والله ما حصل، إنت إزاي تقول كده!

جبريل بصرامة: حاتم، كلمة زيادة وهبهدل كرامتك قدام الناس كلها ومش هيهمني.

نظر له حاتم بضيق وهو يشيح بوجهه بينما أخذه حسام من يده وأجلسه بجواره قائلًا: اقعد بس واستهدي بالله كده، إيه اللي مزعلك على الصبح؟

حاتم بضيق وعصبية: العمدة اللي مش ناوي يجيبها لبر معايا جايب لوردة عريس وسمعت إنه هيقرا الفاتحة الليلة كمان.

جبريل بصرامة: اللهم طولك يا روح، إنت مالك ومالها، البنت رفضتك خلاص خلي عندك دم وكفاية فضايح بقا.

حاتم بثورة وهو ينهض من مكانه: وردة دي بتاعتي واللي هيفكر يلمسها هيكون أخر يوم في عمره، مش هتتجوز حد غيري.

اتجه جبريل إليه قائلًا بغضب: لا ده إنت اتجننت وعايز تتربي كمان.

ولطمه على وجهه أمام العمال فأحمر وجه حاتم غضبًا وحرجاً وتوقف الجميع عن العمل وهم ينظرون إليهم بدهشة وفضول.

نظر حاتم لأبيه بعيون محمرة غاضبة من أسفل منظاره الطبي وغادر ثائرًا حتي لا يلاحظ أحد ألم ذراعه الذي يخنقه أكثر بينما وقف حسام وهو يكاد يبكي على أخيه

وعلى حبه الذي يضيع وهو يقف مكتوف الأيدي وحدث نفسه قائلًا بعيون دامعة: إزاي وردة ما تقوليش حاجة زي كده؟

قطع والده تفكيره قائلًا بضيق وغضب وهو يضع أحد الدفاتر بعنف أمامه على المكتب: مالك إنت كمان، إيه مش هنشوف شغلنا ولّا إيه؟

حسام بعيون دامعة: هه

جبريل وهو يزفر بضيق: مالك إنت كمان؟

حسام وهو يغادر مسرعًا: بعد إذنك يا بابا.

وضع جبريل القلم بعصبية على الدفتر ونظر حوله فوجد العمال ما زالوا ينظرون إليهم بفضول فقال بثورة: كل واحد على شغله، إيه، مش عايزين يومية ولّا إيه؟

أسرع الجميع إلى أعمالهم بينما وضع جبريل رأسه بين يديه وهو يتنهد بأسى قائلًا: يارب اهديهم.

****

جلست وردة في غرفتها تبكي ودق باب غرفتها فقالت بعصبية : قلت مش هاكل ولا خارجة من أوضتي لحد.

فُتح الباب ودخلت فتاة في نفس عمرها مع والدة وردة.

الفتاة بمرح: ومش عايزة تشوفيني أنا كمان يا عروسة؟

نهضت وردة بسرعة واحتضنتها قائلة بلهفة: نبيلة! جيتي إمتى من مصر؟

نبيلة وهي تجلسها بجوارها: جيت النهارده، جلال خد أجازة وجينا نقضي يومين معاكوا.

والدتها بعتاب: وشك نور يعني أما شوفتي بنت عمك وأنا ماليش خاطر عندك.

أشاحت وردة بوجهها بضيق وقالت نبيلة: معلش يا مرات عمي، روحي بس هاتي لها حاجة تاكلها وأنا هافرفشها إن شاء الله.

غادرت والدة وردة وهي تنظر لابنتها بعتاب بينما تبعتها وردة بنظرها حتى أغلقت الباب خلفها.

أجهشت بالبكاء وهي تمسك يد نبيلة وتستنجد بها قائلة: الحقيني يا نبيلة أبوكي وماما عايزين يجوزوني بالعافية.

ربتت نبيلة على يدها وقالت : أنا اتصدمت أما عرفت وجيت جري، إيه اللي حصل وخلاهم صمموا المرة دي؟

وردة وهي تبكي: حظي اللي مش راضي يتعدل، ماما عرفت موضوع حسام وصممت تجوزني، بتقول هفضحهم كده.

نبيلة بتساؤل: وهي عرفت منين؟

وردة بضيق: أنا بغبائي كنت فاكراها تقدّر حبي، لكن للأسف قالت عليا خرابة بيوت وكده هافضحهم وأوقع حاتم وحسام في بعض.

نبيلة بهدوء: حسام عايز يقابلك ضروري.

وردة بلهفة: هو أتصل بيكي؟

نبيلة وهي تهز رأسها دلالة الإيجاب: أول ما وصلت عند بابا لقيت جلال جاي يقولي حسام كلمه وقاله إنه بقاله أسبوع مش عارف يقابلك.

وردة بحزن: ماما حابساني في البيت.

نهضت نبيلة قائلة: طيب تعالي معايا.

وردة بأمل: على فين؟

نبيلة بحسم: لازم تقابلي حسام ما تتنازلوش عن حبكم بالسهولة دي.

وردة بحيرة: طيب وماما هتخرجني إزاي؟

نبيلة وهي تسحبها من يدها: أنا هاتصرف.

قابلتهم والدة وردة وهي تحمل طبق من الشطائر.

والدة وردة بشك: على فين؟

نبيلة بمكر: هخدها عندي تتفرج علي فساتين جبتها معايا.

والدة وردة وهي تضع الطبق من يدها: ما ينفعش، فيه ناس جاية بالليل يقروا فتحتها ولازم تقعد عشان تجهز نفسها.

نظرت لها وردة بعيون دامعة بينما قالت نبيلة وهي تحسم أمرها: مش هنتاخر يا مرات عمي ولّا أنا هخطفها يعني.

والدة وردة بضيق: مش قصدي وإنتي عارفة بس...

نبيلة مقاطعة: مش هنتاخر أوعدك يا مرات عمي دول حتي هيعجبوها وتبقي تجيب منهم في جهازها.

وردة برجاء: عشان خاطري يا ماما ولّا حضرتك ما بقتيش واثقة فيا خلاص؟

والدتها بنفاذ صبر: ماشي، بس ما تتأخريش ولو عرفت إنك رحتي كده ولّا كده، مش هيحصل كويس.

وردة بلهفة وهي تغادر مع نبيلة: مش رايحة وهرجع على طول.

غادرت وردة مع نبيلة بينما تنهدت والدتها قائلة بضيق: ربنا يهديكي يا بنتي.

****

وقف حسام على شاطئ الترعة في مكان بعيد عن الأنظار بجانب بلدتهم وقد حجبت الاشجار رؤية الناس له على مرمى البصر.

أخذ يلقي بعض الأحجار الصغيرة بعصبية في الماء وهو ينظر لساعته بضيق.

ارتفع صوت وردة من جواره وهي تقول بشوق: اتأخرت عليك؟

التفت لها حسام بلهفة واحتضنها قائلًا بشوق: لو مكنتيش جيتي كان هيحصل لي حاجة.

ابتسمت وردة وهي تشعر بالأمان بين ذراعيه وقالت بحب: بعد الشر عنك يا حسام.

أجلسها حسام بجواره وقال بصرامة: إيه اللي سمعته ده؟ يعني إيه قراية فتحتك النهارده؟! هو ده اللي اتفقنا عليه.

وردة بأسى: غصب عني، إنت ما تعرفش حصل إيه، أنا بقالي إسبوع مش عارفة أشوفك ولا أحكيلك.

حسام بعتاب وهو يمسك بيدها: وكنتي مستنية إيه؟ أما تتجوزي وتفكري بعدها تقولي لي.

ترقرقت الدموع في عيني وردة وقالت بعتاب هامس: أنا اتجوز غيرك برضه يا حسام؟! ده الموت عندي أهون.

احتضن حسام رأسها الي صدره قائلًا بعد الشر عنك يا حبيبتي، المهم احكيلي إزاي ده حصل؟

روت له وردة ما حدث وإصرار والدتها على عدم الزواج منه، خاصة بعدما رفضت أخيه التوءم وما في ذلك من مخالفة للعادات والتقاليد وضرب لجذور العائلة من أساسها.

انتهت وردة من حديثها وقال حسام بتنهيدة: للأسف وجهة نظرها صح.

وردة بدهشة: يعني إيه، هتتخلي عني وتسيبني أتجوز غيرك؟!

حسام بسرعة: لا طبعًا الموت عندي أهون، أنا بس بقولك إنها للأسف صح.

وردة بقلب مكسور: طيب هنعمل إيه دلوقتى؟

حسام بتنهيدة: مش عارف، أنا كنت بحاول أحل مشكلة حاتم دلوقتي ظهر لي موضوع مامتك، كل حاجة جاية علينا.

وردة بسرعة: أنا مستعدة أهرب معاك و نتجوز.

حسام بصرامة: ده أخر حل هنفكر فيه ولو حصل هيبقي بعلم والدتك هي ما تستاهلش منك إنك تكسريها.

وردة بضيق: واشمعنى هي عايزة تكسر قلبي وتحرمني منك.

حسام برزانة: هي فاكرة إنها كده بتحميكي،بصي المهم دلوقتي نخلص من موضوع العريس ده وبعدين نشوف موضوع حاتم.

وردة بحيرة: وهنخلص إزاي؟

حسام: عدي النهارده على خير وأنا هتصرف مع والدتك وإن شاء الله توافق.

وردة بضيق: ماما صعب توافق، إنت ما تعرفهاش.

حسام بثقة: سيبيها لي، إن شاء الله هاقنعها النهارده يعدي على خير.

****

أخذت والدة وردة تجوب المنزل ذهابًا وإيابًا تضرب قبضتها في يدها الأخري وهي تقول بغضب: ماشي يا وردة حسابك معايا عسير.

دخلت وردة المنزل قائلة بترقب من نظرات والدتها: مساء الخير يا ماما.

كان الرد عبارة عن صفعة من والدتها نزلت على وجهها قائلة بغضب: برضه قابلتيه يا بنت أبو المكارم.

وردة بصدمة وهي تضع يدها على وجهها: عرفتي إزاي؟

والدتها بصرامة: أوعي تفتكري إني دخل عليا تمثيلية نبيلة الخايبة دي، أنا بعت وراكي الخدامة وهي اللي قالت لي.

انسابت دموع وردة وقالت بصوت منكسر: إنتي ليه مصممة تكسري قلبي.

والدتها وهي تنهرها: إنتي اللي عايزة تكسري هيبتنا، عارفة مين كان هنا قبل ما تيجي؟!

نظرت لها وردة بتساؤل فأكملت والدتها بعصبية: حاتم، وبهدل الدنيا وفضحنا كعادته، عايزاني إنتي بقا أوافق على أخوه عشان الناس تقول عليا ما عرفتش أربي بنتي والأخين هيموتوا بعض عليها.

وردة وهي تبكي بغزارة: ماما إنت كده بتدبحيني .

والدتها بقسوة: بلاش كلام فارغ، أنا كلمت عمك وقلت له بلاش فاتحة ولا خطوبة، كتب كتابك بكرة على طول إن شاء الله.

نزل حديث والدتها على قلبها كالخناجر ولم تستطع النطق بكلمة ولكن عقلها

نطق بما سوف تفعله.

- كتب كتاب مين يا جماعة إنتوا بتهزروا هي مش كانت فاتحة بس.

انتهى حسام من جملته وهو ينظر لنبيلة وزوجها بصدمة.

نبيلة بألم من أجلهم: دي أخر حاجة بابا بلغنا بيها من شوية، إنت لازم تتصرف، وردة كده ممكن تروح منك.

حسام بسرعة: ما تقوليش كده مجرد الفكرة بتموتني.

جلال بتساؤل: طيب هتتصرفوا إزاي دلوقتي، دي والدتها مصرة تجوزها وأخوك كمان مش سايبها في حالها.

حسام وهو يشعر بشلل في تفكيره: مش عارف أنا حاسس إني هيجرالي حاجة.

و نهض بسرعة قائلًا: أنا لازم أقابل والدتها دلوقتي حالًا.

نبيلة بسرعة: روح معاه يا جلال ما تسيبهوش لوحده.

أسرع جلال خلفه قائلًا: إستني يا حسام أنا جاي معاك .

تابعتهم نبيلة بنظرها وهي تقول بقلق: عديها على خير يارب.

****

انتهت والدة وردة من أداء صلاة العشاء وأحست فجأة بقبضة في قلبها فنهضت إلى غرفة ابنتها كي تطمئن عليه.

دقت الباب بهدوء، لم تتلقَ إجابة ففتحته وهي تنادي عليها فلم تجدها بالغرفة، دق قلبها فزعًا وقلقًا لاتعرف مصدره وظلت تبحث عنها في أرجاء المنزل حتى وصلت إلى الحمام.

دقت بابه بهدوء وهي تسمع صوت الصنبور قائلة: وردة إنتي جوه؟

لم تتلقَ إجابة فدقته مرة أخرى وقلقها يتصاعد قائلة: وردة افتحي الباب.

لم تتلقَ إجابة مرة أخرى فوجدت نفسها تدقه بعنف وهي تنادي بأعصاب منهارة: وردة إفتحي بقولك.

حاولت فتح الباب ولكنه لم يستجب لانه مغلق من الداخل، ظلت تحاول فتحه بعشوائية وقد انسابت دموعها وهي تقول ببكاء: افتحي يا بنتي ما تحرقيش قلبي عليكي.

دق باب المنزل فأسرعت تفتحه بسرعة كمن تطلب منه النجدة.

وجدت حسام وجلال أمامها وقع قلب حسام فزعًا عند رؤية وجهها الباكي وأعصابها المنهارة.

حسام بخوف من الإجابة: وردة فين؟

والدتها بانهيار: الحقها يا ابني قافلة على نفسها الحمام وما بتردش.

أسرع حسام وجلال إلى الحمام.

حسام و هو يحاول فتحه بعصبية ويدق الباب بعنف: وردة، افتحي الباب.

اشترك معه جلال في محاولة فتح الباب ووالدة وردة تتابعهم ببكاء حتى تمكنوا من فتحه.

دخل حسام و معه جلال فاتسعت عيناه فزعًا وهو يري وردة غارقة في دمائها بأرضية الحمام.

دخلت والدتها خلفهم وقالت بصراخ وهي ترى ابنتها تحتضر مدرجة في دمائها: بنتي

****

٨- هروب مؤقت

****

"يأتينا الأمان مرة واحدة في الحياة، فرصة واحدة إن لم تغتنمها ستندم، سيحاول الكثير كسر خاطرك، إن لم تستطع المقاومة فحطم نفسك بنفسك ولا تستسلم لهم، افسد عليهم متعة الانتصار عليك"

حملها حسام فزعًا وهو يحاول كتم جرح معصمها بقطعة ملابس بلا جدوى.

ساعده جلال وفتح له باب سيارته كي يذهبوا للمشفى سويًا.

وضعها في المقعد الخلفي وجلس بجوارها وجلست والدتها في المقعد الأمامي بجوار جلال.

انطلق جلال بسيارته مسرعًا ينهب الطريق نهبًا.

سمع حسام همهمة من وردة التي غابت عن الوعي فأمسك يدها بيده التي تلوثت بدمائها قائلًا بلهفة من بين دموعه: وردة سمعاني؟!

همهمت مرة أخرى فوضع حسام أذنه بالقرب من شفتيها فسمعها تقول بوهن: حسام ما تسيبنيش.

ضغط على راحتيها أكثر قائلًا بصوت مبحوح: عمرى ما هسيبك.

واستدار إلى جلال قائلًا بهيستريا: بسرعة يا جلال.

ضغط جلال على المقود فأطلقت السيارة صريرًا عاليًا وهي لا ترحم الطريق تحت عجلاتها.

_ممكن أعرف إنت كنت عند وردة بتعمل إيه ساعة ما حاولت تنتحر؟

أفاق حسام من شروده على جملة أخيه الذي ينظر له بشك وهم يجلسون مع أبيهم على مائدة الإفطار.

حسام وهو يتحاشى النظر في عينيه ويحتسي الشاي: أنا مكنتش عندها، أنا كنت معدي بالصدفة أنا وجلال وسمعت والدتها، لقناها طالعة تستنجد بحد.

نظر له حاتم بعدم تصديق قائلًا: والمفروض إني أصدق الكلام ده صح!

حسام بثبات: تصدق أو ما تصدقش دي مش مشكلتي.

حاتم بضيق وتحفز: يعني إيه؟

حسام وهو يزفر بضيق: يعني أنا حتى لو حلفت لك مش هتصدق لأنك بطبعك شكاك.

حاتم بابتسامة سخرية: والله بجد؟

أشاح حسام بوجهه في الجهة الأخرى فضرب جبريل بيده على المائدة قائلًا بغضب مكتوم: ياريت نقفل الموضوع ده عشان نهاركم يعدي على خير انتوا الاثنين.

حاتم بغرور مستفز: ياريت حضرتك تروح تخطبها لي تاني، هي كانت هتموت نفسها عشاني ما أستحملتش تتخطب لحد غيري.

مط حسام شفتيه بغضب مكتوم وهو يتمتم قائلًا: استغفر الله العظيم يارب.

بينما قال جبريل وهو ينهض ويرتدي ساعته من أمامه: الظاهر إن فهمك على قدك أو كرامتك مش مهمة عندك.

حاتم ببرود وهو يحتسي الشاي: يعني حضرتك هتروح إمتى؟

جبريل وهو يغادر: أنا مش هارد عليك عشان كفاية إهانات فيك لحد كده و ياريت تخلصوا فطاركم وكل واحد على شغله.

غادر جبريل بينما قال حاتم بتصميم وهو يغادر: برضه مش هاسيبها.

مسح حسام وجهه بيديه وهو ينظر لأخيه الذي غادر وتركه يجلس وحيدًا على مائدة الطعام وفي عقله ألف سؤال وبحر من الحيرة والتفكير.

****

تمددت وردة في سريرها وقد تم لف معصمها بضمادة ووجهها شاحب من أثر الإرهاق والإعياء.

دثرتها والدتها بغطائها وجلست بجوارها واحتضنت رأسها قائلة بعتاب: كده يا بنتي، عايزة تسيبيني لوحدي وتحرقي قلبي عليكي

وردة بهدوء شاردة: إنتي السبب، عايزة تحرميني من السعادة عشان كلام الناس.

والدتها بتنهيدة: أنا بحميكي، إحنا مش عايشين في الدنيا لوحدنا.

وردة بدموع: بس بنتوجع لوحدنا، بنتحرم لوحدنا، بنعيش لوحدنا لما نسيب اللي بنحبهم عشان كلام الناس، كانوا هينفعوكي بإيه الناس أما أموت وأسيبك، كان زمانك قاعدة بتعيطي لوحدك، هيقعدوا جنبك يومين، تلاتة، عشرة حتى، وبعد كده كله هينشغل في حياته وينساكي.

أجهشت والدتها بالبكاء قائلة: كفاية يا بنتي أنا أعصابي مش مستحملة.

وردة وهي تضغط على حروف كلامها: مجرد الكلام بيوجعك ما بالك بقا لو كنت موت بجد.

والدتها وهي تضع يدها على وجهها باكية: كفاية حرام عليكي.

وردة وهي تجلدها بحديثها: حرام عليا أنا! طيب وإنتي مش حرام عليكي.

مسحت والدة وردة وجهها بيدها قائلة باستسلام: خلاص يا وردة أنا موافقة تتجوزي حسام.

لمعت عيني وردة وقالت بفرحة مكتومة: بتتكلمي بجد يا ماما.

والدتها بتنهيدة: أيوه بجد، خوفه عليكي ولما شالك وجري بيكي على عربية جلال والمستشفى، كان بجد هيتجنن لو جرالك حاجة حسيت إنه فعلًا هيحافظ عليكي، غير حاتم خالص اللي عايز يتملكك وخلاص حتى لو غصب.

دب النشاط في وردة ونهضت تحتضن والدتها قائلة بفرح: ربنا يخليكي ليا يا ماما.

ربتت والدتها على ظهرها قائلة بلهجة ذات معني: طيب أنا وافقت أبوه هيوافق؟

نظرت لها وردة بدهشة قائلة: أبوه؟!

والدتها بزفرة حارة: أومال كنتي فاكرة إيه، هيكسر قلب حاتم عشان خاطركم، الاثنين ولاده وما دام ما وافقناش على حاتم مش هيوافق إنك تتجوزي حسام.

وردة بصدمة: أنا عمري ما فكرت في الناحية دي.

والدتها بتنهيدة: لازم تفكري في كل حاجة، زي ما قلت لك إحنا مش عايشين في الدنيا دي لوحدنا.

نظرت وردة لوالدتها بصدمة وعجزت عن الرد فهي تعرف أنها محقة وطرقت بابًا لم يطرقه عقلها ولا عقل حسام.

جلست نبيلة في حديقة منزل والدها شاردة و يبدو عليها الحزن.

جلس جلال بجوارها وهو يحيطها بذراعيه قائلًا: حبيبتي سرحانة في إيه؟

لم تجبه ونزلت دمعة على وجهها فقال جلال بخضة وهو يمسك يدها: في إيه؟

نبيلة وهي تمسح دمعتها: مفيش كله بيضايقني من ساعة ما جيت.

جلال بتنهيدة: موضوع الخلفة برضه؟

أومأت برأسها إيجابًا بينما قال جلال بضيق: على فكرة إحنا بقالنا سنة بس متجوزين.

نبيلة بحزن: معلش أصل الريف غير المدينة وماما بتقولي ساكتين ليه شوفوا دكتور.

جلال وهو يحتضن راحتيها بين يديه: أنا مش مستعجل، إن شاء الله ربنا هيرزقنا بس لسه بدري.

أتى حسام في هذه اللحظة قائلًا: مساء الخير يا جماعة.

نهض جلال يسلم عليه: حسام عامل إيه؟ مساء النور

جلس حسام وعلى وجهه الهمّ قائلًا: الحمد لله.

ووجه كلامه لنبيلة مكملًا: وردة عاملة إيه النهارده؟

نبيلة بابتسامة: الحمد لله بتسلم عليك وبتقولك مرات عمي موافقة على جوازكم خلاص.

حسام بهم: ياريت كانت المشكلة في والدتها أنا مش عارف هعمل إيه في حاتم، ده واخد الموضوع حياة أو موت.

جلال بابتسامة ماكرة: أنا عندي الحل ومفيش غيره.

حسام بسرعة: إيه هو؟

جلال بتساؤل: افتتاح الجمعية والملجأ إمتى؟

حسام باستغراب: ده إيه علاقته بكلامنا، يوم تمنتاشر في الشهر، ما أنت عارف.

جلال: إنت بحكم شغلك فيهم، بعد مدة هتبقي معظم الوقت في مصر صح؟

حسام باستغراب أكثر: تمام

نبيلة بحيرة: إنت عايز توصل لإيه يا جلال؟

جلال بمنطقية: بسيطة جدًا ما دام والدة وردة وافقت تاخدها وتسافر على مصر وتعيشوا هناك وإنت تتجوزها هناك بعيد عن البلد وأهلها.

نظر له حسام بابتسامة بينما قالت نبيلة باستنكار: يا سلام بالبساطة دي، ما حاتم هيعرف من بابا وكل الناس هتعرف.

جلال بلهجة ذات معنى: ده لو أبوكي عرف أصلًا.

نبيلة بعدم استيعاب: قصدك إيه؟

حسام بابتسامة أكبر: أنا فهمت قصده، إحنا فعلًا جوازنا مش هينفع غير في السر.

نبيلة بصدمة: في السر؟!

جلال بثقة: أومال إنتي فاكرة،إيه وردة ووالدتها هيلموا حاجتهم ويمشوا من البلد بالليل من غير حد ما يحس.

أكمل حسام قائلًا وقد فهمه: والناس تصحى تتفاجئ باختفائهم هيدرورا شوية وحاتم معاهم.

فأكمل جلال بعده قائلًا بابتسامة: وبعد كده هيزهقوا وينسوا، بس لازم يمشوا قبل افتتاح الملجأ والجمعية.

نبيلة بصدمة من حديثهم: اشمعنى يعني قبلها؟

جلال وهو يهز كتفيه بلامبالاة: عشان محدش يشك في حسام، لأنهم لو مشوا معاه في نفس الوقت هيبقي الشك كله ناحيته.

حسام بإعجاب: جلال إنت عبقري، أنا مش عارف أشكرك إزاي.

جلال وابتسامته تتسع: ما تشكرنيش، المهم تنفذوا على طول لأن مش باقي كتير على الافتتاح، وخلي بالك مش إنت اللي هتوصلهم مصر.

نبيلة بدهشة أكبر وصدمة من تتفكير: ليه بقا يا سي جلال؟

جلال وهو يضحك من أسلوبها: لإن ببساطة لازم يكون نايم في بيته ويصحي يتفاجئ قدام أخوه والبلد كلها إن وردة ووالدتها اختفوا.

حسام بتساؤل: أومال مين هيوصلهم ويوفر لهم مكان لحد ما أسافر لهم؟

جلال: أنا ونبيلة هنسافر قبلهم بيومين كده وأنا هاجي بالليل بعربية أخدهم من غير ما حد يحس وهشوف لهم شقة بعيد عننا.

نبيلة بصدمة أكبر: جلال، إنت فكرت في كل ده إمتى؟! أنا خوفت منك.

ضحكا حسام وجلال من صدمتها وقال جلال بصدق: حسام صاحبي وأخويا ولازم أساعده من ساعة ما وردة حاولت تنتحر وأنا بفكر لحد ما وصلت للحل ده.

حسام وهو يشكره : أحسن حل، أنا كنت هموت من التفكير وما قدرتش أوصل للحل ده.

جلال بغرور مصطنع: لأنك متوتر إنما أنا دماغي شغالة، عِد الجمايل بقا.

ضحك حسام بسعادة بينما ظلت نبيلة تنظر لزوجها بدهشة مضحكة من أسلوبه وتفكيره.

****

انتهت وردة من تجهيز حقائبها هي ووالدتها وهي تقفز فَرِحة كالأطفال.

خرجت إلى الردهة فوجدت والدتها تبكي بصمت، أسرعت إليها قائلة بخضة: ماما مالك؟

والدتها وهي تمسح دموعها: مش هاين عليا أسيب بيتي بعد العمر ده كله.

ظهر الضيق على وجه وردة وقالت بتأنيب ضمير: خلاص يا حبيبتي لو مش عايزة نمشي بلاش ما دام مضايقة.

ربتت والدتها على يدها قائلة بحنان: لا يا حبيبتي سعادتك أهم من أي حاجة المهم عندي أشوفك مبسوطة.

قبلّت وردة يدها قائلة بحب: ربنا يخليكي ليا يا ست الكل.

ابتسمت لها والدتها بحنان، ودق جرس الباب فقالت وردة وهي تسرع لفتحه بسعادة: ده أكيد جلال.

فتحت الباب فوجدت أمامها حاتم

نظرت له بصدمة فمعاد وصول جلال قد أقترب.

حاتم ببرود وابتسامة مستفزة: إزيك يا وردة؟

عقدت وردة ذراعيها أمام صدرها وقالت بضيق: أفندم عايز إيه؟

حاتم وهو يتقدم للداخل: إنتي عارفة كويس أنا عايز إيه؟

وضعت وردة يدها أمامه على حافة الباب لتمنعه من الاستمرار في الدخول قائلة بغيظ: أولًا أنا ما سمحتش لك إنك تدخل، ثانيًا طلبك إترفض ١٠٠ مرة، وياريت يكون عندك دم وتورينا عرض كتافك.

أتت والدة وردة قائلة بغضب: هي دي الأصول يا إبن الحاج جبريل جاي لاثنين ستات لوحدهم بالليل كده.

نظر حاتم لوردة بغيظ قائلًا: أنا مش هبطل أجي غيرلما بنتك تعقل وتعرف إنها مش هتتجوز حد غيري.

وردة بنفاذ صبر وعصبية: اللهم طولك يا روح، إنت إيه ما بتفهمش، قلت لك مش عايزاك ١٠٠ مرة هقولها غور بقا من هنا.

وهمّت بغلق الباب في وجهه فوضع يده ليمنعها قائلًا بعيون غاضبة: مش أنا اللي يتعمل معايا كده.

نظرت له وردة بخوف بينما قالت والدتها بعصبية: إمشي من هنا حالًا يا حاتم، أحسن أتصل بوالدك وأبلغه بعمايلك دي.

نظر لها حاتم بعيون مخيفة وأمسك وردة من معصمها لاويًا ذراعها خلف ظهرها فصرخت بألم وهمس في أذنها بنبرة جمدت الدماء في عروقها: إنتي زودتيها أوي معايا.

صرخت وردة بفزع وسالت دموعها وهي تتألم من قبضته وقلبها يدق بعنف خوفًا منه بينما صرخت والدتها وهي تدافع عنها وتحاول تخلصيها من يده قائلة بصراخ: سيبها أحسن لك، أنا هوديك في داهية يا حاتم.

لم يكترث حاتم لصراخ والدتها ولا محاولة تخليص ابنتها من يده وجذب شعر وردة بغل قائلًا: بنتك لو ما بقتش من نصيبي يبقي موتها على إيدي.

أتى حسام في هذه اللحظات إليهم وقد سحب حاتم وردة إلى الخارج ووالدتها خلفهم تصرخ فزعة على بكاء وألم ابنتها.

أسرع حسام إليهم قائلًا بغضب: حاتم إنت بتعمل إيه؟

حاتم بغل وهو يجذبها من شعرها أكثر وهي تصرخ من الألم: اللي إنت شايفه، أنا محدش اتجرأ قبل كده وعمل معايا اللي هي عملته، لازم تتربى.

والدة وردة وهي تستنجد به من وسط دموعها: إلحقنا يا ابني، أخوك اتجنن وعايز يقتل بنتي.

مسكه حسام من يده وهو يخلصها منه قائلًا بغضب: سيبها يا حاتم إنت زودتها أوي.

نجح حسام في تخلصيها من يده فأسرعت بها والدتها إلى الداخل وأغلقت الباب لتحميها منه فأنهارت وردة في أحضانها تبكي بهستريا : ده مجنون يا ماما أكيد مش طبيعي.

أما حسام فدفع أخيه أمامه قائلا بثورة: ليلتك مش فايتة، إيه اللي بتعمله ده إنت إيه معندكش عقل.

حاتم بجنون وغل: إنت ايه اللي جابك هنا؟ قولي صدفة بقا برضه.

حسام بغضب: أيوه صدفة وده من حظك قبل ما تجنن وتعمل مصيبة.

حاتم بثورة: أكيد بابا اللي بعتك تراقبني

حسام وهو يدفعه أمامه قائلًا بغضب: أيوه ارتحت بقا إمشي معايا كفاية فضايح.

ظل حسام يدفع أخيه أمامه حتي ابتعدا عن المنزل وما زال صوتهم يدل على الشجار.

توقف جلال بسيارته أمام المنزل بعد دقائق وأسرع يدق الباب.

ففزعت وردة وتشبثت بوالدتها قائلة بفزع: ما تفتحيش يا ماما.

والدتها وهي تهدئها: إهدي بس، ده أكيد جلال.

والدتها من خلف الباب: مين؟

أتاهم صوت جلال وهو يتنحنح قائلًا: أنا جلال.

فتحت الباب بسرعة له.

جلال بصدمة من انهيار وردة: مالكم في إيه؟

والدتها بسرعة وهي تعطيه حقيبة صغيرة: مش وقته إحنا لازم نمشي من هنا حالًا.

تناول جلال منها الحقيبة قائلًا بدهشة: إيه اللي حصل بس؟

والدة وردة: هنحكيلك في الطريق، المهم ودي الشنطة دي العربية وتعالى ساعدني بسرعة نودي باقية الشنط ونقفل البيت.

واحتضنت ابنتها الباكية مكملة بصرامة: إحنا خلاص ما بقاش لينا مكان في البلد دي.

****

٩- بدايــة الفـراق

****

"ما أحقر الخداع والمخادعين، هؤلاء مَن يلبسون قناع البراءة وفي داخلهم نيران تشتعل ولو قست شدتها بداخلهم لوجدت حرّها فقط يذيب الدنيا ومن يقترب منهم "

ركضت زهرة إلى خارج الحمام وشعرها مبتل وهي تضحك ببراءة.

وخرجت خلفها وردة وهي تقول بصرامة: زهرة تعالي هنا.

اختبئت الطفلة خلف والدها الذي حملها وقبلها قائلًا بسعادة: حبيبة بابا.

وردة بضيق وهي تغطي شعر زهرة بمنشفة: إنت هتفضل مدلعها كتير كده يا حسام.

حسام وهو يقبل طفلته مرة أخرى: بنتي حبيبتي، كفاية إنها طالعة شبهك يا أجمل وردة.

ابتسمت وردة رغمًا عنها وهي تأخذ منه زهرة وتجفف لها شعرها.

وردة بابتسامة وهي تجلس: الكلام الحلو ما بقناش بنسمعه غير في الأعياد والمناسبات.

جلس حسام على جانب كرسيها وهو يقبل رأسها قائلًا بحب: إزاي بس، ده إنتي الحب كله، معلش بس الشغل والبلد أوقات بياخدوني منكم.

وردة بتنهيدة : ربنا يقويك يا حبيبي، أنا بس بهزر معاك، إنت عارف بعد وفاة ماما حاسة بوحدة فظيعة.

حسام بدعاء: ربنا يرحمها يارب، كانت بتحبك أكتر من نفسها.

وردة بعيون دامعة: أيوه، ضحت بكل حاجة عشاني واتدفنت في بلد غير بلدها عشان سعادتي.

ربت حسام على كتفها قائلًا بحنان: هوني على نفسك يا حبيبتي، هي أكيد في الجنة إن شاء الله.

وردة بدعاء وهي تمسح عينيها: يارب.

انتهت من تمشيط شعر زهرة وفجأة ارتفع صوت رضيع بالبكاء فركضت إلى غرفتها وهي تقول بفزع: كريم صحي.

حسام مداعبًا: خلي كريم ينفعك يا أم كريم.

التفتت له وهي تقول بابتسامة: طبعا هينفعني يا أبو كريم.

دخلت إلى غرفتها وحملت طفلها الذي لم يتجاوز عمره شهر واحد لتهدئته بينما ركض حسام خلف زهرة بعدما التقطت مفاتيحه في سهوة منه.

زهرة بسعادة: خد مفاتيحك مني يا بابا.

ظلت تجري وهي تضحك بشقاوة وحسام يركض خلفها قائلًا بصرامة مصطنعة: هتروحي مني فين، وراكي وراكي.

نال منها حسام وحملها وهي تصرخ فزعة بسعادة: هقع يا بابا حاسب.

حسام وهو يدغدغها بين يديه بصرامة مصطنعة: ده أنا هأوريكي.

ظلت زهرة تضحك وهي لا تتمالك نفسها

ونظرت لهما وردة بسعادة وهي ترضع طفلها ودعت الله في نفسها أن يديم عليها سعادة أسرتها الصغيرة.

****

جلست نبيلة في شرفة شقتها تتصفح إحدى المجلات.

فتح جلال باب المنزل وهو يحمل حقيبة عمله بيده وجلس على الكرسي المقابل لها قائلًا بوجه خالٍ من التعابير: مساء الخير.

لم تنظر له نبيلة وقالت وهي ما زالت تتصفح مجلتها بعدم اهتمام: مساء النور.

ظلا صامتين لدقائق، فقطعت نبيلة الصمت قائلة بصوت يشوبه الحزن: أحضر لك الغدا؟

جلال وهو ينظر للخارج بشرود: شكرًا إتغديت بره.

وضعت نبيلة المجلة على المنضدة بعنف وهي تقول بنفاد صبر: دي ما بقتش عيشة دي.

نظر لها جلال بغضب مكتوم قائلًا: ما تعليش صوتك عليا.

نهضت من مكانها قائلة بغضب أكبر: هو ده كل اللي يهمك! طيب وإحساسي ومشاعري وإنت كل يوم رامياني في البيت وتاكل بره ولا كأنك متجوز وفيه زوجة لها حقوق عليك.

نظر لها بحزن، تجاهل حديثها وحمل حقيبته دخل باتجاه غرفتهم وهو يفك رابطة عنقه.

فتح الغرفة وألقى حقيبته بعيدًا وشرع في تبديل ملابسه.

دخلت نبيلة خلفه قائلة بغضب أكبر: أنا بكلمك على فكرة.

لم يجبها جلال وهو يكمل ارتداء ملابس المنزل.

نظرت له بوجه محمر وجلست بانهيار على أريكة وهي تقول بصوت مختنق من البكاء: حرام عليك، هو ده جزائي بعدما ضحيت بكل حاجة عشانك.

انفجرت في بكاء حار فجلس جلال بجوارها وأحتضنها قائلًا بعيون دامعة: سامحيني، بس مش قادر استحمل، بقالي سنين بحاول أتفادي الموضوع ومش قادر.

ضربته نبيلة بخفة بقبضتها في صدره وهي تدفن وجهها به قائلة ببكاء: قلت لك مش عايزة أطفال خلاص، إنت كل حاجة ليا ابني وجوزي وحبيبي.

مسح جلال دمعة فرت رغمًا عنه وقال: وإنتي ذنبك إيه، عشر سنين مستحملة وفي الأخر طلعت أنا اللي ما بخلفش.

مسحت نبيلة دمعة فرت منه على وجهه مرة أخرى وقالت له بإخلاص: ذنبي إني حبيتك وعمري ما هتخلي عنك وإذا كان على أهلي إحنا بطلنا نروح لهم ومحدش بيضايقنا دلوقتي.

دق جرس المنزل في هذه اللحظات فقبل جلال رأس زوجته وارتدى معطفه المنزلي قائلًا وهو يمسح وجهه: أنا هشوف مين وإنتي إغسلي وشك مش عايز حد يشوفك كده.

أسرعت نبيلة تغسل وجهها بينما فتح جلال الباب وقال مرحبًا: أهلًا أهلًا يا وردة اتفضلي.

دخلت وردة وهي تحمل صغيرها وبعض الأكياس ومعها زهرة.

أغلق جلال الباب خلفهم فقالت وردة بابتسامة: إزيك يا جلال عاملين إيه؟

جلال وهو يقودهم للداخل: الحمد لله، فينكم من زمان؟ وحسام عامل إيه؟ واحشني والله.

جلست وردة وزهرة بجوارها وقالت : ما أنت عارف، أنا من ساعة ما ولدت ما خرجتش وحسام محتار بين البلد وهنا عشان محدش هناك يشك في حاجة.

جلال: ربنا يقويه، والتفت لزهرة قائلًا بحنان: عاملة ايه يا زوزا؟

ابتسمت زهرة وقالت: الحمد لله يا عمو.

تلفتت وردة حولها وقالت: أومال فين نبيلة؟

أتت نبيلة على سؤالها وقالت بابتسامة : أنا هنا أهو، إيه المفاجأة الحلوة دي؟

سلمت عليهم وجلست بجوارهم وهي تداعب الطفل الصغير وزهرة.

وردة: أنا كنت نازلة أحجز شوية حاجات عشان عيد ميلاد زهرة بعد كام يوم، فقلت أعدي عليكم شوية.

جلال بترحاب: نورتونا والله، هتكملي كام سنة بقه يا زوزا؟

زهرة و ترفع ثمانية أصابع من يدها : تمن سنين يا عمو.

نبيلة بحنان: كل سنة وإنتي طيبة يا حبيبتي.

وردة بشكر: وإنتي طيبة يا بلبل، محتاجاكي بقا معايا عشان نزين البيت وكده.

نبيلة موافقة: حاضر من عينيا.

وردة بشكر: تسلميلي يا أحلى إخت، ألتفتت لجلال قائلة: وإنت بقا يا سي جلال، حسام مأكد عليا إنك تحضر لإننا ما بقناش بنشوفك خالص.

جلال باعتذار: معلش والله عارف إني مقصر بس الشغل وكمان كل شوية ينزلوني تفتيش في مكان مختلف.

وردة بتفّهم: ربنا يقويك، بس هتيجي برضه.

نبيلة بتساؤل: هو عيد ميلادها إمتى؟

زهرة بسرعة: يوم الأربع يا طنط.

جلال وهو يحك جبهته: أوبا سامحوني مش هقدر أحضر.

نبيلة بضيق: ليه يا جلال؟ إوعي تقولي تفتيش كعادتك.

جلال وهو يهز رأسه: فعلًا وفي المنصورة كمان، هسافر التلات وغالبًا هارجع يوم الخميس.

وردة بعتاب: ملناش دعوة، كلم حسام وقول له عشان هيزعل منك أوي.

جلال باعتذار: سامحوني والله غصب عني، أنا هكلمه واعتذر له.

جذبت زهرة والدتها من يدها قائلة بقلق طفولي: يلّا يا ماما نروح عايزة أقيس الفستان.

نبيلة بسرعة: تروحوا إيه؟ إنتوا هتتغدوا معانا ولا إيه يا جلال؟

جلال بسرعة: أيوه طبعًا.

زهرة وهي تضرب بقدميها الأرض بطفولة: لأ أنا عايزة أقيس فستاني عشان عمو بتاع المحل قال أخر معاد بالليل.

وشرعت في البكاء فقالت وردة بحرج: معلش يا جماعة مرة تانية عشان نشوف موضوع الفستان ده.

فأخذ جلال زهرة وأجلسها بجواره قائلًا بحنان: إهدي بس فستان إيه؟

وردة بحرج: أصل اشتريت لها فستان عشان عيد ميلادها والمحل كان زحمة جامد جدًا وما عرفتش أقف فيه كتير عشان كريم فما قاستش والبياع قال لنا أخر معاد للتبديل بالليل.

نبيلة وهي تأخذ زهرة من زوجها: خلاص تعالي قيسي جوه مع ماما علي ما أحضر أنا الغدا.

وردة بحرج: بس...

جلال: مفيش بس، انتي هتتكسفي ولّا إيه ده إحنا أهل.

وردة وهي تعطيه كريم: طيب خلي كريم معاك بقا على ما أخلص لزهرة.

جلال وهو يلتقطه بلهفة: بس كده، ده في عينيا.

قادت نبيلة وردة وابنتها إلى إحدى الغرف بينما جلس جلال وهو يحمل الطفل الرضيع وينظر له بشوق وأعين دامعة وقال محدثًا نفسه بحزن: كان نفسي ربنا يرزقني بواحد زيك بس ماليش نصيب.

****

"بعد مرور يومان"

وصل حسام إلى الملجأ الخاص بهم وفتح حقيبة سيارته وهو يخرج أكياس كثيرة وهدايا ونادي الحارس قائلًا: تعالى شيل معايا يا عم أحمد.

الحارس مسرعًا إليه وهو يحمل معه: حسام بيه نورت.

حسام بامتنان: شكرا يا عم أحمد.

الحارس بفضول: إيه ده يا حسام بيه؟

حسام وهو يغلق سيارته مبتسمًا: دي هدايا للأولاد زي كل شهر، وما تخافش ما نسيتش نصيب ولادك.

الحارس بفرحة: ربنا يخليك لينا يارب.

وإسرع يسبقه وهو يحمل الأشياء إلى الداخل.

انتهى حسام من حمل باقي الاشياء وهو يعبر بعده الطريق.

لم ينتبه إلى السيارة المسرعة القادمة باتجاهه فصدمته بعنف وتطايرت الاشياء من يده وهو يرتفع للأعلى بفعل الصدمة.

سقط أرضًا غارقًا في دمائه وشريط حياته يمر أمام عينيه بسرعة: والده، حبه له، أخيه، شجارهما سويًا وفرحهما سويًا، زوجته التي لا تملك من الدنيا سواه هو وأطفالهم، زفافهما، فرحة أول طفل، وكرم الله بطفل ثان، أوقاتهم السعيدة والخوف من القادم.

نظر الحارس للخلف وألقى ما بيده مسرعًا إليه بفزع: حسام بيه! الحقونا يا ناس.

****

دق جرس منزل وردة بعنف فأسرعت تفتحه وهي ترتدي ملابس الخروج.

دخلت نبيلة قائلة بقلق: ماله كريم يا وردة قلقتيني؟

وردة ببكاء: تعبان أوي يا نبيلة وبتصل بحسام في الجمعية والملجأ مش عارفة أوصل له.

نبيلة وهي تدخل غرفتهم للطفل الذي يبكي بشدة: إهدي بس إن شاء الله خير.

وضعت يدها على جبهته فقالت بفزع وهي تتراجع: يا خبر ده سخن أوي.

وردة وهي تحمله هو وحقيبتها ببكاء: حرارته أربعين، أنا قلت أقولك تيجي معايا مش هعرف أصرف لوحدي وزهرة كمان عايزة حد ياخد باله منها.

نبيلة وهي تمسك الطفلة بيدها: طيب طيب، كفاية كلام يلا بينا على المستشفى بسرعة.

نزلا سويًا مسرعين وبعدها بدقائق رن جرس هاتف المنزل.

ظل الهاتف يرن باستمرار وتصميم.

وضع أحد العاملين بالجمعية الهاتف قائلًا لزميله بأسى : محدش بيرد برضه.

زميله: خلاص يا حامد، حاول تتصل بأهله في الغربية، هما لازم يعرفوا برضه.

حامد بأسى وهو يبحث عن الرقم في سجل الارقام: كنت عايزأبلغ مدام وردة تروح له الأول قبل ما حد فيهم يوصل.

زميله بفضول: محدش فيهم يعرف إنه متجوز صح؟

حامد بضيق: وإنت مالك إنت؟ روح قفل المكان على ما أتصل عشان نروح لهم المستشفى وإياك حد يعرف موضوع الجواز ده، هقطع عيشك من هنا.

زميله برهبة: خلاص خلاص، ولا كأني سمعت حاجة.

همّ زميله بالخروج فدخل حاتم المكتب في هذه اللحظة قائلًا: هو في إيه، المكان فاضي كده ليه؟

حامد بلهفة: أستاذ حاتم كويس إنك جيت.

حاتم بقلق: في إيه يا حامد؟

حامد بسرعة: أستاذ حسام صدمته عربية قدام الملجأ من ساعة تقريبًا.

حاتم بصدمة: إنت بتقول إيه؟ وهو عامل إيه دلوقتي؟ وفين مكانه؟

حامد بإشفاق: أنا ما أعرفش حالته إيه دلوقتي أنا كنت بحاول أكلمكم وهو في القصر العيني حاليًا.

حاتم وهو يغادر بسرعة: طيب أنا رايح له وإنت كلم بابا بلغه بسرعة.

حامد وهو يمسك الهاتف: حاضر، أنا هاتصل تاني وأجي ورا حضرتك.

غادر حاتم مسرعًا إلى المشفي بينما اتصل حامد بالحاج جبريل وأبلغه.

****

انتهى الطبيب من فحص الطفل الذي رقد تحت جهاز الأكسجين وقال محدثًا وردة و نبيلة: عنده حمى نتيجة نزلة شعبية حادة، مشكلة إنه صغير جدًا ومناعته ضعيفة.

وردة بخوف: يعني إيه يا دكتور، فيه خطر عليه؟

نبيلة بسرعة: بعد الشر عنه.

الطبيب ليطمئنهم: إن شاء الله الأربعة وعشرين ساعة دول يعدوا على خير وهيبقي كويس.

استمرت وردة في بكائها فهدأتها نبيلة قائلة: خلاص بقا يا حبيبتي، إن شاء الله خير.

وردة بدعاء من بين دموعها: يارب يا نبيلة.

نبيلة بحنان: خلاص إهدى بقا عشان خاطر زهرة خايفة.

نظرت وردة إلى الطفلة التي تجلس بركن الحجرة وقد بدا الخوف على وجهها وهي تنظر لهما ولأخيها الصغير.

ذهبت إليها وردة وهي تمسح دموعها واحتضنتها قائلة بحنان: ما تخافيش يا حبيبتي كريم هيبقي كويس إن شاء الله.

زهرة بخوف: أنا عايزة بابا يا ماما هو فين؟

نبيلة باستغراب: حسام فين لحد دلوقتي فعلًا حاجة غريبة!

تدخل الطبيب قائلًا: لو سمحتوا ممكن تستنوا بره جو الاوضة، لازم يكون هادي عشان الولد.

وردة بخضة: أنا مش هقدر أسيبه.

الطبيب بصرامة : لو سمحتي بره دلوقتي لو عايزة ابنك يبقي كويس.

ربتت نبيلة على كتفها قائلة وهي تهدئها: يلا يا حبيبتي إهدي بس إحنا هنستني بره واما يسمحوا لنا ندخل هندخل.

نظرت وردة لطفلها بخوف وحنان و قالت بأمومة: طيب هيرضع إزاي وهو تعبان؟

الطبيب: إحنا هنتصرف، هنركب له محاليل لحد ما يعدى وقت الخطر إن شاء الله.

نظرت له وردة بعيون حزينة فسحبتها نبيلة من يدها إلى خارج الغرفة قائلة: يلا يا حبيبتي.

خرجوا من الغرفة وجلسوا على المقاعد التي تجاورها.

نبيلة بقلق: ما تحاولي تتصلي بحسام يا وردة، ممكن يكون رجع البيت وقلقان عليكم.

وردة وهي تمسح وجهها بتنهيدة: عندك حق خلي زهرة معاكي وأنا هدور على تليفون وأحاول أتصل بيه تاني.

تركتهم وردة وغادرت إلى خارج المشفى لتبحث عن مكان تحدث منه زوجها التي لا تعلم أنه غادر الدنيا ولا مجال لحديثهم مرة أخرى حتى تلحق

به.

***عودة إلى الحاضر ***

_جواب إيه اللي جوزك بعته؟! إنتي مش قولتيلي إنه اتوفي قبل دخول كريم المستشفي كمان؟

تردد السؤال بصوت ليلى في عقلها وهي تجلس بجوار بسمة في الحافلة عائدين من المدرسة.

التفت لبسمة قائلة: بيت الحاج جبريل فين يا بسمة؟

بسمة بدهشة: ده إنتي بقيتي عارفة أهل البلد كويس بقا.

لم تجبها ليلى وأشاحت بوجهها إلى النافذة فقالت بسمة بتنهيدة: مش هتحكيلي كالعادة؟! على العموم هوديكي لحد هناك.

ليلى بشكر: شكرًا يا بسمة تعباكي معايا.

بسمة: العفو بس أما تحبي تحكي أنا موجودة.

توقفت الحافلة في هذا الوقت ونزلا سويًا وقادت بسمة ليلى إلى المنزل الكبير الذي يتوسط البلدة.

وقفت ليلى تتأمل المنزل في صمت فقاطعت بسمة تفكيرها قائلة: مش يلا بقا.

ليلي: لأ استني شوية هو حاتم جبريل ألاقيه فين؟

بسمة بذعر: عايزة منه إيه؟

ليلى باستغراب: خوفتي كده ليه هو عفريت؟

بسمة بضيق: لأ مش عفريت بس إنسان مش محبوب وطول عمره حواليه إشاعات ومشاكل ورغم كده الناس تعاطفت معاه بعد موت ولاده بس محدش حاول حتى يصاحبه حتة عادل منبه عليا ما أقربش من بيتهم حتى عشان ما احتكش بيه.

ليلى بضحكة خفيفة: إيه ده كله؟ محسساني إنك بتتكلمي عن هولاكو.

بسمة بخوف: أنا ما بحبهوش ولا عايزة اتكلم عنه.

ونظرت باتجاه البوابة بخوف قائلة: ده خارج أهو يلا بينا مش عايزين مشاكل.

ليلى وهي تتجه إليه: امشي إنتي.

نادتها بسمة بصوت خافت خائف قائلة: ليلى إرجعي بلاش مشاكل.

لم تعِرها ليلى اهتماما واستمرت في تقدمها نحوه حتى وقفت خلفه وهو يفتح باب سيارته.

ليلى بلهجة ذات معنى: أستاذ حاتم؟

استدار حاتم لها قائلًا وهو يتفحصها بشك: أيوه أفندم؟

ظهرت ابتسامة على طرف فم ليلى وقالت وهي تضغط حروف كلماتها: وردة بتسلم عليك.

****

١٠- خطاب من حسام ؟!

****

"يقولون دائمًا إن المجرم يحوم حول موضع جريمته ولكن هناك من يخاف مجرد الاقتراب من المكان لأن شبح الضحية يطارده فيه ويذكره بما اقترفت يداه وما سوف تقترف لإخفاء جريمته إلى الآبد"

انتهت ليلى من تجهيز نفسها للخروج وخرجت من غرفتها لتجد والدها يصلي العصر، جلست تنتظره حتى ينتهي.

انتهى كمال من صلاته وقال باستغراب: إيه ده؟ رايحة فين دلوقتي؟

ليلى وهي تهز كتفيها: لسه بدري يا بابا، ده إحنا العصر؟

كمال: والنهارده الجمعة كمان رايحة فين بقا؟

ليلى بثبات: هخرج أتمشى شوية، بعد إذن حضرتك.

كمال بشك: لوحدك؟!

ليلى برجاء: أيوه لو سمحت يا بابا، أنا مخنوقة من المذاكرة ومحتاجة أغير جو.

كمال بقلق: طيب هاجي معاكي.

ليلى بضيق: هو حضرتك شايفني طفلة؟

كمال باستنكار: ليه بتقولي كده؟

ليلى وهي تشير بيدها بضيق: عشان كل ما أخرج ما ترضاش تسيبني لوحدي، يا إما مع حضرتك يا إما مع بسمة.

كمال وقد تغير وجهه: إنتي بتضايقي عشان خايف عليكي ولا زهقتي من خروجي معاكي؟

شعرت ليلى بتأنيب الضمير فقالت بسرعة وهي تمسك يده: أنا أسفة يا بابا، ما أقصدش والله بس بجد محتاجة أخرج لوحدي.

ابتسم كمال نصف ابتسامة وربت على خدها قائلًا: خلاص يا لولا زي ما تحبي بس ما تتأخريش.

ليلى: يعني حضرتك مش زعلان مني؟

كمال بحنان أبوي: لا طبعا، هو أنا ليا غيرك يا حبيبتي المهم تبقي مبسوطة وبخير.

ليلى وهي تقبل يده: ربنا يخليك ليا يا بابا عاوز مني حاجة قبل ما أخرج.

كمال: شكرًا يا حبيبتي، خدي بالك من نفسك، وقبل المغرب تكوني هنا.

ليلى وهي تغادر بسعادة: حاضر.

****

جلس حاتم في غرفة مكتب أبيه وقد احمرت عيناه من قلة النوم.

أمسك بأحد الأقلام وأخذ يعبث به بلا هدف وهو يحدث نفسه قائلًا بغل: طلعتي لي منين إنتي كمان يا ست ليلى، هو أنا كل ما أنيمها من حتة تقوم تاني، مش كفاية اللي أنا فيه وحرقة قلبي على ولادي.

تحدث جانب الخير المدفون في عقله قائلًا: اللي حصل لولادك ده يجي إيه جنب اللي إنت عملته؟!

حاتم بغل: أنا مكنتش أقصد، وحسيت بالغدر من أقرب الناس ليا.

جانب الخير: ده مش مبرر، شوف إنت عملت كام جريمة عشان تداري على أول جريمة.

حاتم بغل أكبر: أنا كنت بادافع عن نفسي.

جانب الخير: ده مش مبرر، إنت مجرم.

نفض حاتم رأسه ليخرس ضميره إلى الآبد، هذا وإن كان يمتلك منه ذرة واحدة من الأساس.

انهمك في تفكيره وحطم القلم إلى نصفين قائلًا بغل: مجرم .. مجرم نهايتها زي غيرها.

في هذه الأثناء كانت ليلى تقف أمام قبر وردة تقرأ الفاتحة لها.

أتى صوت سيدة من خلفها قائلة: إنتي مين؟

التفتت ليلى إلى مصدر الصوت فوجدت سيدة في الثلاثينيات من عمرها تنظر لها بحذر وبيدها طفل صغير عمره قد تجاوز الخمس سنوات بقليل.

ليلى بثبات: في حاجة يا أفندم؟

السيدة بضيق: أظن سمعتي سؤالي، بقولك إنتي مين؟

ليلي لتستفزها أكثر: هو حضرتك أما بتقابلي أي حد في مكان عام بتسأليه هو مين بدون داعي؟

السيدة بضيق وقد أحمر وجهها: إنتي شايفة إن مفيش داعي أسألك وأنا لقيتك واقفة قدام قبر بنت عمي وصاحبة عمري وبتقري لها الفاتحة كمان.

ظهرت ابتسامة على طرف فم ليلى وقالت بثقة: مدام نبيلة؟!

علت الدهشة وجه نبيلة وردت قائلة: وكمان عارفاني؟

ليلي بثقة: عارفاكي كويس جدًا، بس يا ترى اللي بتقولي عليها صاحبة عمرك دي، إنتي صونتي صداقتها كويس ولا إيه؟

نبيلة بغضب: إنتي مين؟ وإزاي تتجرأي تقوليلي كده؟

ضحكت ليلى من غضبها والتفتت للطفل الصغير قائلة: إزيك يا كريم؟

سقط قلب نبيلة بين قدميها عند سماعها اسم كريم بينما قال الطفل ببراء: أنا اسمي هشام مش كريم.

أخفت نبيلة الطفل خلف ظهرها وقالت بحذر أكبر وتهديد: عارفة لو ما قلتيش إنتي مين وعايزة إيه مش هيعدي عليكي ليلة جديدة في البلد دي.

ليلي بتهديد مماثل: إيه هتخلي اخوكي العمدة الجديد يطردني من البلد ولا إيه؟

نبيلة بتحدٍ: ما إنتي عارفه كويس اللي ممكن يحصلك أهو.

ليلى بتهديد: هيحصلك أكتر منه، أما كل الناس تعرف إن الولد الجميل ده اسمه كريم مش هشام.

صُعقت نبيلة مرة أخرى بينما قال الطفل لنبيلة: ماما قولي لها إن اسمي هشام مش كريم.

شددت نبيلة قبضتها على يد كريم قائلة وهي تحتضنه بذراعها الآخر وترتجف من داخلها: أيوه يا حبيبي هشام جلال الدين إبراهيم مهما الدنيا كلها قالت غير كده.

ليلى وهي تغادر بتحدٍ: هنشوف.

قبضت نبيلة على ذراعها بقسوة قائلة: مش هسيبك قبل ما أعرف إنتي مين وجبتي الكلام ده منين؟

نفضت ليلى ذراع نبيلة بقوة من عليها قائلة بثقة: إياكِ تفكري تتعاملي معايا بالطريقة دي تاني، لو كنتي عرفتيني قبل كده كنت ممكن ساعتها أخاف منك بس دلوقتي لأ وردة علمتني حاجات كتير أوي.

شهقت نبيلة بفزع أكبر وهي تسمع اسم وردة وحملت الطفل الذي قال: في إيه يا ماما؟

نظرت لهما ليلى بابتسامة وغادرت دون إضافة كلمة جديدة، تاركة نبيلة خلفها غارقة في بحر من الدموع والندم والتفكير والخوف.

****

جلست ياسمين بجوار جدها الحاج جبريل وهي تقول له : وحشتني أوي يا جدو.

قبل جبريل رأسها قائلًا بحنان: وإنتي كمان يا حبيبتي، عاملة إيه؟

ياسمين بحزن: الحمد لله، خالو دخلني مدرسة هنا وقالوا لي إني خلاص مش هشوف طارق تاني.

تمزق قلب جبريل حزنًا وقال: إنتي الخير اللي باقي لنا يا بنتي ربنا يحفظك.

تنحنح أكرم الذي كان يجلس معهم قائلًا بحرج: كويس إنك جيت يا حاج، كنت عايز أتكلم مع حضرتك في موضوع.

جبريل باهتمام: خير يا ابني؟

أكرم لياسمين: إدخلي إقعدي مع ماما يا ياسمين.

ياسمين وهي تمسك بيد جدها : لأ أنا عايزة أقعد مع جدو.

جبريل بحنان: معلش يا حبيبتي، إدخلي دلوقتي وهنقعد مع بعض تاني.

امتثلت ياسمين لأمره وقالت: حاضر.

تركتهما وذهبت إلى غرفة والدتها.

جبريل بعتاب: إيه؟ هي سعاد مش هتسلم عليا ولا إيه؟

أكرم بحزن: سعاد من ساعة اللي حصل بقت كأنها مش عايشة لا بتتكلم ولا بتتفاعل معانا، حتى الأكل ماما بتديه لها بالعافية.

جبريل بألم: ربنا يصبرها ويصبرنا جميعًا، اللي حصل مش قليل برضه.

وأكمل حديثه وهو يسأل أكرم باهتمام: خير، كنت عايزني في إيه؟

تنحنح أكرم بحرج قائلًا: بص يا حاج إحنا كان شرف كبير لينا إننا نناسبك بس خلاص كفاية كده.

ضاقت عينيّ جبريل وقال: مش فاهم!

حك أكرم جبهته وقال بوجه محمر: يعني حاتم لازم يطلق أُختي.

جبريل بصرامة وغضب: بتقول إيه؟

أكرم بسرعة: اسمعني بس يا حاج، أنا أختي محتاجة علاج نفسي طويل وخلاص مش هتقدر تعيش مع ابنك تاني، يبقي نختصر الطريق وكل واحد يروح لحاله.

جبريل بعتاب: مكنش العشم يا أستاذ أكرم.

أكرم: حضرتك يا حاج على دماغنا بس تقدر تقولي ابنك فين من ساعة ما جينا من عندكم مجاش شاف بنته غير مرة واحدة وما سألش على سعاد كمان ولا كأنها موجودة.

جبريل بحرج: معلش يا ابني اللي هو فيه مش سهل برضه.

أكرم بضيق: ده مش مبرر لأنها مش مصيبته لوحده ابنك من ساعة ما إتجوز أختي وهي دايمًا في مشاكل معاه، من أول غموضه معاها زمان لحد اللي حصل لولادهم واللي مش لاقيين له تفسير.

جبريل بصدق: أوعدك إني هعرف اللي حصل ده حصل ليه وإزاي، بس حاتم ملهوش ذنب، حاتم خسر ولاده الاتنين مش باقي له غير سعاد وياسمين بلاش تحرمه منهم هما كمان عشان ساعتها مش هضمن ردة فعله.

أكرم باستياء: إنت بتهددنا يا حاج!

جبريل بسرعة: أعوذ بالله، أنا بس بحاول أحافظ على البيت، إسمع كلامي يا ابني وأجل الموضوع ده شوية وأوعدك إني لو اكتشفت إن بُعد سعاد وياسمين عن حاتم هو ده الأمان لهم هبعدهم عنه بنفسي من غير تردد.

****

وقفت ليلى أمام منزل أم ريحان بتردد وحسمت أمرها وطرقت الباب بهدوء، ثوان وفتحت أم ريحان الباب قائلة وهي تتفحصها: مين؟

ليلي بحرج: حضرتك مش فاكراني؟! أنا جيت لك قبل كده عشان....

قاطعتها أم ريحان قائلة بغضب: إنتي تاني! إنتي عايزة مني إيه؟ سيبوني في حالي بقا.

ليلى بضيق: يا ستي إهدي بس، أنا مش جاية لك أنا جاية لريحان ممكن أقابله؟

اتسعت عينيّ السيدة بدهشة وغضب وأحمر وجهها وهي تكتم دموعها وصفعت الباب مرة أخرى في وجه ليل بكل ما تملكه من قوة وغل وكراهية.

وسمعتها ليلى من خلف الباب وهي تقول بصراخ: البت دي مجنونة ولا إيه حكايتها هو أنا كنت ناقصاها؟!

زفرت ليلى بضيق وقالت بغضب وهي تغادر: وبعدين بقا في بلد المجانين دي.

كان الليل بدأ في التسلل بعد الانتهاء من صلاة المغرب، فمشت ليلى في اتجاه منزلها وقبل المنزل ببضع خطوات وجدت ريحان يجلس تحت شجرة ضخمة على شاطئ الترعة.

أسرعت إليه قائلة بلهفة: كنت بادور عليك

التفت لها ريحان وقال بابتسامة: إزيك يا أنسة ليلى؟

جلست ليلى بجواره قائلة: الحمد لله، إنت عامل إيه؟

ريحان بهدوء: زي ما أنتي شايف، كنتي عايزاني في إيه؟

ليلى بفضول: الأول قولي، رحت بيتك أسأل عليك، مامتك اتعاملت معايا وحش أوي هي ليه بتعمل كده؟

ريحان وهو ينظر للماء: سيبك من أمي دلوقتي، فيه حاجة جديدة حصلت لك؟

ليلى بترقب: إنت عارف قصة وردة طبعا؟

ريحان بابتسامة مريرة: طبعا، عز المعرفة روحتي لحاتم ولا لسه؟

ليلى بصدمة: أها رحت له.

ريحان بطيبة: طيب خلي بالك من نفسك أوي الفترة الجاية.

ليلى بخوف: ليه بتقول كده؟

ريحان: لإنه مجنون، إنسان سادي وأناني ممكن يعمل أي حاجة في أي حد من غير رحمة ولا شفقة.

ليلى بخوف أكبر: قصدك إيه؟ إنه ممكن يأذيني؟!

ريحان بثقة : تبقي ساذجة لو فكرتي في غير كده، خلي بالك من نفسك.

ليى بفضول غلب خوفها: هو عمل معاك إيه؟

ريحان بتنهيدة: عمل اللي عمله بقا، المهم ما تبقيش نسخة مكررة مني وحاولي تعرّفي الناس حقيقته بسرعة قبل ما يفكر يأذيكي.

نظرت له ليلى بخوف وقد انعقد لسانها فقال ريحان بابتسامة ليشجعها: الدنيا ليلت أوي والمطرة بدأت تظهر.

نظرت ليلى إلى الأعلى فسقطت بعض نقاط الماء على وجهها وبدأت أصوات نباح

الكلاب تظهر في المكان.

ريحان بجدية: يلا قومي روحي وما تخرجيش بالليل لوحدك في الشتا ده تاني.

ليلى وهي تتمالك نفسها: كنت بخرج عادي وأنا عايشة في مصر.

ريحان بنصيحة: مصر غير هنا وإنتي كمان ساكنة في بيت مطرف عن البلد لوحده وبسبب مكانه وقلة الناس حواليه، حاتم أذى كل اللي سكن فيه تقريبا.

نهضت ليلى من مكانها قائلة بخوف: طيب إنت مش هتروح وهشوفك تاني إزاي؟

ريحان: لا أنا قاعد شوية وأما تحبي تشوفيني في شجرة ورا بيتنا هتلاقيني قاعد تحتها كل يوم بعد المغرب و يلا روحي بسرعة.

ليلي وهي تغادر خائفة من وحشة المكان: سلام.

نظر لها ريحان وهي تبتعد وسقطت دمعة من عينيه قائلًا: يارب ما تبقيش نسخة مكررة مني أنا ووردة.

****

اشتدت غزارة الأمطار في هذه الليلة وأوت الناس إلى بيوتهم فأصبحت شوارع القرية مهجورة إلا من بعض الكلاب الضالة التي تنبح بردًا ووحشية.

جلست وردة مع ابنتها تحت أحد الاشجار في الحديقة والأمطار تهطل بغزارة.

فتحت ليلى نافذة حجرتها ونظرت إليهما فالتفتت لها وردة مبتسمة وهزت رأسها دلالة فهمها أن ليلى لا تستطيع الخروج في هذه العاصفة.

أغلقت ليلى النافذة وتركتها تجلس وزهرة بمفردهما في هذه الليلة وقد وضعت زهرة رأسها على ركبة والدتها.

نظرت وردة إلى جرح في جانب رأس زهرة وملست عليه بحنان وقد اغرورقت

عيناها بالدموع وهي تعود بذاكرتها ألى هذه الأيام التي سلبت منها كل ما تملك.

****

- مدام وردة.

انطلق النداء من خلفها وهي تنزل درج بنايتها وبيدها زهرة.

التفتت إلى الصوت فوجدت جارتها الخمسينية تناديها.

وردة بود: إزيك يا مدام ألفت عاملة إيه؟

ألفت بود: الحمد لله، أستاذ حسام سابلك جواب عندي.

وردة بدهشة: حسام! هو جه هنا، ده أنا حاولت اتصل بيه كتير في شغله محدش رد.

ألفت: هو قالي إنه مسافر البلد وأسلمك الجواب ضروري استني هاجيبهولك.

دلفت ألفت إلى الداخل وثوان وعادت وهي تناولها الخطاب قائلة: اتفضلي.

وردة وهي تلتقطه: شكرًا يا مدام ألفت، معلش تعبنا حضرتك.

ألفت بابتسامة: مفيش تعب ولا حاجة، طيب إتفضلي، أنا أسفة والله نسيت أقولك.

وردة بّتفهم: ولا يهمك، مرة تانية إن شاء الله عشان راجعة المستشفي لكريم.

ألفت: ألف سلامة عليه.

وردة وهي تستعد للمغادرة : الله يسلمك تحبي أجيبلك حاجة من بره وأنا رراجع؟

ألفت بامتنان: شكرًا ليكي، وربنا يشفي كريم.

وردة وهي تغادر: يارب، سلام.

ألفت: مع السلامة.

قالتها وأغلقت الباب خلفها بينما هبطت وردة واستقلت إحدى سيارات الأجرة مع زهرة.

انطلقت بهم السيارة إلى المشفي وفتحت وردة الخطاب.

"زوجتي الحبيبة:

حاولت الوصول إليكِ كثيرًا عن طريق الهاتف وحتى المجئ للمنزل ولكنني لم أُفلح، اضطررت للذهاب إلى البلدة مرغمًا وتركت لكِ هذا الخطاب مع جارتنا كي تلحقي بي ومعكِ الأطفال.

لقد حدثت فاجعة كبري، تُوفى أخي حاتم إثر انقلاب سيارته على الطريق الزراعي، تمزق قلبي عند سماع الخبر، أحسست أن نصف روحي غادرت وبقي النصف الأخر معلقًا بلا هدف.

ركضت للوقوف بجوار والدي وزوجة أخي وأطفاله، كنت أتمنى وجودك بجواري في هذه اللحظات ولكنني لم أنجح في الوصول إليكِ.

أرجو أن تلحقي بي ولكن إلى منزلك القديم سأنتظرك يوميًا به الساعة العاشرة مساءً حتى تأتي لكي نمهد لوالدي الأمر.

لا تتأخري فأنا أفتقدك بشدة.

زوجك المخلص حسام"

****

-إيه، حاتم مات؟

نطقت نبيلة سؤالها بصدمة وهي تجلس مع وردة وزهرة بغرفة كريم بالمشفى.

وردة بأسى: حسام كاتب كده في الجواب بتاعه؟

نبيلة غير مصدقة: جواب! وبعتهولك إمتى؟! ده إنتي يادوب رُحتي البيت تغيري لزهرة وتجيبي حاجة كريم وتيجي.

وردة بحزن: لقيته سايبهولي مع جارتنا وبيقولي لازم أسافر البلد أنا والولاد حالًا عشان نكون جنب الحاج جبريل ومرات أخوه وولاده.

نبيلة بصدمة: معقولة! كل ده حصل من إمبارح للنهارده بس.

وردة بحزن: عشان كده أنا وحسام ما عرفناش نوصل لبعض من إمبارح أنا مع كريم وهو مع موت أخوه، تلاقيه يا حبيبي منهار ومحتاجني جنبه دلوقتي.

نبيل: طيب ما اتصلتيش بالبلد ليه عشان تعرفيه إن كريم تعبان ومش هتقدري تروحي

وردة بتنهيدة: إتصلت من تحت وإنا طالعة بس أول ما واحدة ردت عليا سابت التليفون بسرعة وهي بتصرخ وبتقول الحاج جبريل أُغمى عليه حد يلحقني.

إتسعت عينيّ نبيلة قائلة: ده الوضع هناك مأساة علي كده!

وردة برجاء: ممكن تسافري إنتي وتبلغي حسام باللي حصل وتخليه يجي ياخدنا، يكون كريم خف حتى.

نبيلة بحرج: ما أقدرش إنتي عارفة إن جلال مانعني أروح هناك بقالنا سبع شهور بسبب كلامهم في موضوع الخلفة وكده.

وردة برجاء: عشان خاطري، وبلاش تروحي ناحية بيت أخوكي ومامتك، روحي على طول على حسام وارجعي بسرعة وجلال لسه راجع بكره.

نبيلة بتردد: بس خايفة حد يشوفني.

وردة بسرعة: عشان خاطري، ومحدش هيشوفك، على ما توصلي هتكون الدنيا ليل وأكيد حسام هيرجعك معاه.

نظرت لها نبيلة بتردد ثم قالت بتنهيدة : أمري لله، إنتي عارفة إني ما أقدرش أرفض لك طلب.

احتضنتها وردة قائلة: حبيبتي يا بلبلة.

زهرة بحزن: هو إنتوا مش هتعملوا عيد ميلادي النهارده ولا إيه يا ماما؟

وردة وهي تربت على شعرها: معلش يا حبيبتي، مش دلوقتي، أما كريم يخف وبابا يكون رجع بالسلامة.

عقدت زهرة حاجبيها بغضب طفولي

بينما نهضت نبيلة قائلة: طيب أنا هاروح أغير هدومي وأسافر محتاجين مني حاجة؟

وردة بشكر: شكرًا يا حبيبتي، إبقي كلميني من هناك على رقم المستشفى طمنيني، وانتوا راجعين خلي حسام يسوق بالراحة عشان أكيد هيبقي مضغوط من كل ناحية.

نبيلة وهي تقبلها هي وزهرة: حاضر، سلام،

غادرت نبيلة وتركتهم بينما قالت وردة بتنهيدة: عديها على خير يارب، قلبي مقبوض أوي.

قالتها وهي تضع يدها على موضع قلبها ووجهها يبدو عليه القلق والخوف، لكن أهو الخوف من القادم أم شعور غريزي أن الخطر يقترب؟!

****

١١- صديقة خائنة

****

"إذا كنت تظن أن الهروب سينجيك من الماضي العالق في رقبتك، فأنت لا تعرف عن الحياة شيئًا؛ فمهما هربت ومهما مرّت الأيام سيأتي وقت تصفية الحسابات وحينها سيأخذ كل شخص جزاءه بما اقترفت يداه"

خرجت نبيلة من منزل أخيها وهي تمسك بيدها الطفل الصغير واتجهت نحو سيارة متوقفة أمام المنزل قائلة للسائق: حطيت الشنط في العربية؟

السائق: أيوه يا ست نبيلة.

فتحت الباب الخلفي للسيارة وأركبت الطفل الصغير وهمّت بالركوب عندما استوقفها صوت والدتها وهي تأتي من الداخل مسرعة تنادي: نبيلة.

التفتت إليها فأسرعت والدتها واحتضنتها قائلة: خلي بالك من نفسك إنتي وابنك يا حبيبتي.

نبيلة بابتسامة: حاضر يا ماما، بس دي عاشر مرة تسلمي عليا.

والدتها بحنان: أصلك المرة دى مش رايحة مصر هنا؛ ده إنتي مسافرة برة.

نبيلة لتخفي أمرها: معلش يا ماما، جلال هو اللي مصمم زهق من القعدة هناك لوحده ومحتاجنا معاه.

والدتها وهي تربت علي كتفها: ربنا يخليكوا لبعض، بس إبقي إبعتي جوابات وكلميني دايمًا.

أنهت جملتها وسعلت بشدة.

قبلّت نبيلة يديها قائلة: حاضر يا ست الكل، بس إنتي كمان خلي بالك من صحتك.

خرج أخيها عمدة القرية من المنزل قائلًا بهيبة: يلا بينا.

نبيلة: خليك مرتاح يا أبو أحمد، أنا رايحة على المطار على طول.

أخيها: هوصلك لحد هناك وأطمن عليكوا

نبيلة بامتنان: ربنا يخليك لينا.

سلمت على والدتها مرة أخرى وركبوا جميعًا السيارة وانطلقت بهم، فلوحت لها والدتها قائلة بدعاء: توصلوا بالسلامة يارب.

تقدمت سيارتهم في طريق الخروج من البلدة وبعد دقائق أتت سيارة حاتم في وجههم وكاد يصطدم بهم وهو يدخل القرية، لكن سائقهم تفاداه ومرّ حاتم كأنه لم يفعل شيئًا وهو ينظر لنبيلة نظرة سريعة تجمع بين السخرية والغدر.

أخيها بغضب وهم يبتعدوا عنه: إنسان همجي عمره ما هيتغير

نظرت نبيلة لسيارته من الخلف وهي تبتعد واغرورقت عيناها بالدموع وهي تعود إلى ذكريات مر عليها أكثر من خمسة أعوام.

****

انتهى الطبيب من فحص كريم وقال لوردة: الحمد لله، أحسن كتير النهارده.

وردة بتنهيدة ارتياح: الحمد لله، طيب يقدر يخرج إمتى يا دكتور؟

الطبيب مغادرًا: يومين بالكتير إن شاء الله.

غادر الطبيب الغرفة فقالت زهرة لوالدتها بإرهاق : ماما هنروح بيتنا إمتى بقى؟

همت وردة بإجابتها ولكن دق باب الحجرة ودخلت نبيلة.

أسرعت زهرة إليها واحتضنتها من أسفل فستانها قائلة بسعادة: طنط نبيلة.

ربتت نبيلة على شعرها ووجهها خالٍ من التعابير، فنهضت وردة إليها قائلة بصدمة وهي تتحسس كدمة زرقاء حول إحدى عيني نبيلة: إيه ده؟! نبيلة حصلك إيه واتأخرتي ليه؟

ونظرت خلف نبيلة قائلة بقلق: وفين حسام؟

جلست نبيلة على الأريكة بالغرفة قائلة بصوت خافت: ما قدرش يجي؛ والده تعبان أوي.

جلست بجوارها وردة قائلة بقلق: طاب إنتي إيه اللي بهدلك كده؟عملتي حادثة ولّا إيه؟

نبيلة وهي تتحاشى النظر في عينيها: أها حادثة بس عدت علي خير الحمد لله.

ثم تابعت بجدية: حسام قالي لازم تروحي له البلد النهارده ضروري.

وردة بقلق: إزاي! هو ما عرفش إن كريم تعبان؟

نبيلة بتماسك: عرف، بس قالي وردة لازم تيجي، خليكي مع كريم في المستشفي لحد ما نرجع ناخده.

وردة غير مصدقة: حسام قالك كده؟! أسيب كريم عشان أروح له البلد!

نبيلة بضيق مصطنع: هكدب عليكي يعني.

وردة بسرعة واثقة: لأ أنا ما اقصدش طبعًا بس مستغربة إنه قالك كده ومستغربة أكتر إنه مجاش معاكي.

نبيلة بحزن: الوضع هناك كارثي، إنتي مش متخيلة البلد حزينة إزاي، وحسام ما يقدرش يسيب أبوه ومرات حاتم وولاده.

وردة باستغراب غير مصدقة: ويسيب ابنه تعبان عادي، وعايزني أنا كمان أسيبه

وأروح له!

نبيلة بعصبية: وبعدين بقا يا وردة، مش عايزة تروحي إنتي حرة، بس سيبيني أروّح عشان تعبانة.

وردة بعصبية: في إيه يا نبيلة؟ أنا أول مرة أشوفك كده!

نبيلة وهي تكتم دموع عينيها: أصلك ما شوفتيش اللي شوفته.

وردة بقلق: شوفتي إيه؟

تجاهلت نبيلة سؤالها وقالت بدموع: إنتي مش مأمنة على ابنك معايا يا وردة؟

وردة بسرعة: لأ طبعًا، إزاي تقولي كده؟! بس مستغربة من اللي حسام عمله.

نبيلة وهي تمسح دموعها: لازم تروحي النهارده هو مستنيكي وقالي هيفهمك كل حاجة لما يشوفك.

وردة بتردد: هسيب كريم وهو تعبان إزاي! قلبي مش مطاوعني.

نبيلة بسرعة وهي تنظر لكريم بشوق: ما تخافيش عليه ده في عينيا.

زهرة برجاء: بابا وحشني أوي يا ماما، هروح له معاكي.

نبيلة بحنان: خليكي يا زهرة معايا.

تشبثت زهرة بملابس والدتها قائلة بإصرار: لأ، أنا هاروح مع ماما عشان أشوف بابا.

نظرت لها نبيلة بإشفاق بينما قالت وردة : خلاص هاخد زهرة معايا وهنرجع بالليل إن شاء الله، بس هاروح له بيتي القديم برضه زي ما قال في الجواب ولّا إيه ؟

نبيلة موافقة: أيوه في بيتك القديم، هو قالي هيجيلك هناك تسعة أو عشرة بالليل.

ذهبت وردة وقبّلت كريم الذي بدأ يستيقظ ونظر لها ببراءة فقبلت جبهته وهي تضعه

بفراشه قائلة: هتوحشني يا روح ماما، إن شاء الله مش هتأخر عليك أنا وبابا.

وقفت نبيلة على الجانب الآخر لفراش الطفل وقالت بحنان: ما تقلقيش عليه، ده في عينيا.

وردة بثقة: أنا واثقة من كده يا نبيلة، ولادي هما ولادك أصلًا.

ونظرت لزهرة قائلة: يالّا يا زوزا بقا عشان ما نتأخرش.

أمسكت زهرة بيدها وهمّا بالمغادرة فنادتها نبيلة قائلة: وردة.

استدارت لها وردة فأسرعت إليها نبيلة واحتضنتها وقد سالت دموعها قائلة: هتوحشيني أوي.

****

مشت ليلى مع بسمة في طريق عودتهم من المدرسة وسط الحقول والأهالي يمارسون حياتهم وعملهم في الحقول.

بسمة برجاء: إبقى زوريني يا ليلى وأنا كمان هزورك؛ أنا ما صدقت بقا عندي صاحبة.

ليلى بضحكة: إيه يا بنتي، مكنوش أسبوعين أجازة اللي هيعملوا فيكي كده.

بسمة بابتسامة: أنا فعلًا مزوداها بس غصب عني طول الثانوي تقريبًا وحيدة، معظم البنات هنا بيتعلموا لحد الإعدادي وبس.

ليلى باستغراب بدون تفكير: غريبة مع إن وردة ونبيلة أكبر مننا بكتير واتعلموا كويس.

بسمة بتلقائية: اللي أعرفه إن اهلهم كانوا موا....

قطعت بسمة جملتها عندما انتبهت إلى كلام ليلى واتسعت عيناها دهشةً وذعرًا: ليلى، إنتي بتقولي إيه؟ إنتي تعرفيهم منين؟

انتبهت ليلى إلى هفوتها وقالت بارتباك: لأ، أنا ما اعرفهمش، ده أنا سمعت كلام كده

من بابا سمعه عنهم في المدرسة.

توقفت بسمة عن السير ونظرت لها غير مصدقة: إنتي بتكدبي عليا يا ليلى.

ليلى بارتباك وهي تجذبها ليكملا السير: وهكدب ليه؟

بسمة بحزن: كنت فاكراكي بقيتي صاحبتي ومش هنخبي على بعض حاجة بس الظاهر إني كنت غلطانة.

ليلى بضيق من نفسها: ما تكبريش الموضوع يا بسمة محصلش حاجة.

بسمة بحسم: خلاص قوليلي بيحصل معاكي إيه، يمكن اقدر أساعدك وأحميكي كمان.

ليلى باستغراب: تحميني من إيه؟

بسمة بتنهيدة: أحميكي من لعنة البيت اللي إنتوا ساكنينه قبل ما تصيبكم.

ليلى بدهشة: لعنة؟!

بسمة بخوف: طبعا لعنة، ماما حكت لي إن البيت ده إتهجر فترة طويلة، بعدما صاحبته وبنتها طفشوا وسابوه، وبعد حوالي تسع أو عشر سنين من اختفائهم، البلد صحيت على حريقة في البيت جامدة أوي ولقوا جثة بنت الست صاحبة البيت دي اللي هي وردة، في البيت بعد غياب سنين.

ليلي باهتمام: يعني هي ماتت من الحريقة؟

بسمة وهي تهز كتفيها: مش عارفة، الموضوع ده من حوالي خمس سنين أو أكتر بس فيه ناس بتقول إنها اتقتلت واللي قتلها ولع في البيت عشان يخفي جريمته.

هزت ليلى رأسها بتنهيدة قائلة: تمام يا بسمة

بسمة بفضول: برضه مش هتحكيلي.

ليلي بضيق: وبعدين يا بسمة هو إنتي ليه زنانة كده.

نظرت لها بسمة وقد أحمر وجهها حرجًا وقالت وهي تسبقها: أسفة، مش هتدخل في حياتك تاني.

تركتها وغادرت مسرعة لتخفي حرجها بينما نادتها ليلى وهي تسرع خلفها قائلة باعتذار: بسمة إستني، أنا أسفة ما اقصدش أزعلك.

****

أسرع حاتم وهو يهبط الدرج الداخلي لمنزله وهمّ بالمغادرة عندما أوقفه والده قائلًا: على فين؟

حاتم بوجه خالٍ من التعابير: ورايا مشوار.

جبريل بتساؤل: فين يعني؟

حاتم بضيق وصوت عالٍ: هو حضرتك عايز مني حاجة دلوقتي؟

جبريل بغضب: حاتم، إنت بتكلمني كده ليه إنت اتجننت؟!

أشاح حاتم بيديه وهو يغادر قائلًا بلا أدب: يوه بقا، أنا خارج.

ناداه جبريل بغضب هائل قائلًا: حاتم، استني عندك.

لم يعِره حاتم اهتمامًا وغادر مسرعًا.

ضرب جبريل الأرض بعصاه غاضبًا وهو يزفر بغضب وضيق.

دخل أحد رجاله ومعه أحد الضباط قائلًا: الباشا الظابط عايز يقابلك يا حاج.

جبريل وهو يتمالك أعصابه مصافحًا له: إتفضل يا حضرة المقدم، نورت البيت.

الضابط بابتسامة: شكرًا يا حاج، كنت عايز أتكلم معاك شوية.

جبريل وهو يقوده إلى غرفة المكتب: طبعًا طبعًا اتفضل.

ونادي قائلًا: اعملي قهوة لمحسن باشا يا نعمات.

نعمات وهي تنظر للضابط بقلق: حاضر يا حاج.

محسن وهو ينظر لنعمات بابتسامة ذات معنى: لأ شكرًا ملهوش لزوم.

جبريل: لأ إزاي؟ حضرتك ضيفنا.

محسن بجدية: أنا مش عايز حد يقاطعني وإحنا بنتكلم.

جبريل بفهم: حاضر، وأشار لنعمات قائلًا: خلاص روحي إنتي.

قاد جبريل محسن إلى غرفة المكتب وجلس معه قائلًا: ها حضرتك وصلت لحاجة؟

محسن بابتسامة: أكيد، وإلا مكنتش جيت.

نظر له حبريل بلهفة واهتمام.

فأكمل محسن حديثه قائلًا: بعدما تحريت كويس عن الخدامين اللي عندك، وصلت لمعلومة عن واحدة منهم.

جبريل باهتمام: مين هي؟

تجاهل محسن سؤاله قائلًا: بنت أمها من البلد هنا بس إتجوزت عامل في شركة نسيج في المحلة والبنت اتولدت وكبرت هناك، بس ده ما منعش إنها تحب ابن خالتها اللي من البلد هنا وإتوفي قبل ما يتجوزوا واتهموا ابنك إنه السبب في موته.

جبريل بدهشة: حاتم!

محسن بلهجة ذات معنى: نسيت ريحان يا حاج ولا إيه؟

اتسعت عيني جبريل دهشة وقد تذكر ما حدث منذ ثلاث سنوات

دق باب منزل أم ريحان في ظلام الليل ففتحت الباب.

وجدت فتاة تغطي وجهها بشال خفيف فقالت بتحفز: مين؟

الفتاة وهي تزيح غطاء وجهها: أنا نعمات يا خالتي.

جذبتها أم ريحان إلى داخل المنزل وأغلقت الباب قائلة بقلق: إيه اللي جابك دلوقتي؟

نعمات وهي تجلس على أريكة قديمة في المنزل المتواضع: حاسة إن البوليس قرب يوصلي يا خالتي.

أم ريحان بقلق: ليه بتقولي كده؟

نعمات بخوف: كان فيه ظابط عند الحاج جبريل النهار دا وشكله وصل لحاجة.

أم ريحان باهتمام: ليه سمعتي حاجة؟

نعمات بقلق: لأ، بس الظابط بصلي بصة غريبة وما رضاش يخلي حد يعمله حاجة يشربها ولا يدخل عليهم.

أم ريحان بتفكير: أها مش يمكن إنتي اللي شكاكة بس.

هزت نعمات كتفيها قائلة بحيرة: مش عارفة بس أنا خايفة أوي، دي فيها إعدام يا خالتي.

أم ريحان بقسوة: وما خوفتيش ليه لما بدأنا سوا، حق ابني لازم ناخده يا نعمات، فاهمة ولا لأ.

نعمات بخوف: طيب كفاية كده، مش مكفيكي كل اللي حصل.

أم ريحان بقسوة: لأ مش كفاية، ولاده كلهم قصاد ابني.

نظرت لها نعمات بخوف وقالت : طيب هبات عندك النهار دا يا خالتي مش عايزة أروح لهم.

أم ريحان بصرامة: لأ لازم تباتي هناك وتتعاملي عادي، لازم كل حاجة تنتهي زي ما إحنا عايزين.

نعمات بتردد: بس...

قاطعتها أم ريحان قائلة: مفيش بس، ويلّا قومي أمشي وأول فرصة تبقى بنت حاتم في البيت هننفذ مش هنستني سنتين كمان كفاية كده.

نهضت نعمات وهي تتنهد بأسى قائلة باستسلام: حاضر

غادرت نعمات وتركت أم ريحان وحدها فسالت دموعها بصمت وهي تمسك بصورة قديمة لولدها عندما كان طفلًا وغرقت بذكرياتها.

****

-إنتي بتقولي إيه يا ولية يا خرفانة إنتي؟

نطق حاتم جملته بغضب وهو يجلس مع أم ريحان في حديقة منزله الذي أتت لرؤيته فيه.

أم ريحان بطمع: اللي سمعته يا بيه، عشرين ألف جنيه وأني هسكت ومش هقول لحد اللي عرفته من وردة.

حاتم بضحكة ساخرة: مش بقولك خرفانة وردة إيه، إنتي بتتكلمي عن واحدة ماتت وشبعت موت، قالت لك في الحلم بقا ولا إيه.

أم ريحان بثقة: قالت لي بأمارة بنتها اللي مدفونة تحت شجرة قدام بيتها، بأمارة ابنها اللي اتفقت مع صاحبتها وخدته، بأمارة ما قتلتها من غير رحمة هي وبنتها و قالت لي كمان على مكان الورق اللي يثبت إنها كانت متجوزة أخوك ومخلفة منه، وعلى موظف الجمعية بتاعت سي حسام الله يرحمه اللي قالك عليهم وقبض التمن وسكت، أني أعرف ياما يا سي حاتم وسكوتي تمنه عشرين ألف جنيه زي ما قولتلك.

نظر لها حاتم بصدمة من كثرة التفاصيل وقالت هي بابتسامة انتصار: متهيألي إتأكدت إني أعرف أكتر منك كمان.

حاتم بعيون غادرة: طاب وإيه اللي يضمن لي إن إنتي مش هتبلغي حد أما تاخدي الفلوس؟

أم ريحان بفرحة لقرب وصولها للمطلب: إديني الفلوس وهاخد ابني ونهج من هنا ومش هتشوف وشنا تاني.

حاتم بابتسامة مخيفة لم يرَ ها طمعها: من عينيا بيتك فين؟ عشان أجيب لك فيه الفلوس.

أم ريحان وهي تنهض: أني ساكنة مع ابني في بيت وردة عشان العمدة كان معينه حارس عليه هنستناك هناك.

حاتم بحسم: أنا ما أقدرش أروح هناك.

أم ريحان بسخرية: أها خايف من عفريتة وردة تطلع لك زينا، أصل البلد كلها عارفة إنها كل يوم بالليل تلف حوالين البيت ...

قاطعها حاتم بغضب مكتوم: من غير كلام كتير، بيتكم فين أروح لكم فيه.

وصفت له أم ريحان مكان منزلها وختمت وصفها قائلة بانتصار: هنستناك الساعة عشرة بالليل النهارده والصبح مش هتلاقينا في البلد زي ما اتفقت معاك.

حاتم بضيق: إنتي غبية صح، مبلغ كبير زي ده مش هلحق أجهزه النهارده.

أم ريحان: إمتى طيب؟

حاتم بنظرة غدر: بكرة الساعة عشرة برضه.

أم ريحان وهي تغادر: اتفقنا يا بيه، هنستناك بكرة.

غادرت أم ريحان وتبعها حاتم بنظرات غادرة وهو يقول بشر: إنتوا اللي جبتوه لنفسكم، دبور وزن على خراب عشه.

مر الوقت سريعًا وأتي الموعد المحدد.

جلست أم ريحان بجانب ولدها قائلة بفرحة: أني مش مصدقة يا واد يا ريحان إننا هناخد الفلوس دي كلها.

ريحان بقلق: إنتي واثقة في حاتم بيه كده ليه، ده طول عمره شراني.

أم ريحان بثقة: على نفسه، ده رقبته تحت إيدينا والبركة في وردة وش السعد علينا.

ريحان بتأنيب ضمير: وحقها فين؟إحنا كده فرقنا إيه عنه؟

أم ريحان بصرامة: بقولك إيه، كلام الكتب اللي اتعلمته في المدرسة ديه خليه لنفسك، أني بعمل كل ده عشانك إنت.

ريحان بضيق: عشاني أنا؟

أم ريحان بسرعة: أومال إيه، باعمل كده عشان تلاقي فلوس تجيب شقة لنعمات بنت خالتك وتتجوزوا ولا عايز أبوها يجوزها لواحد معاه فلوس وتخسرها؟

ريحان بتنهيدة: أني وافقتك بس عشان خاطر نعمات.

دق باب المنزل في هذه اللحظة فنظرا للباب بترقب.

ريحان بحذر: مين؟

أتي صوت حاتم من الخارج وهو يقول بهدوء: حاتم.

فتح ريحان الباب فدخل حاتم وهو ينظر حوله ويتفحص المنزل باحتفار.

أم ريحان بلهفة وطمع: في معادك تمام يا سي حاتم.

نظر حاتم لريحان قائلًا باستهزاء: ده ابنك؟

ريحان بهدوء: أيوة ابنها.

أم ريحان بلهفة: جبت الفلوس؟

ألقي حاتم الظرف الأصفر الذي بيده أرضًا وقال بكبر: أهي قدامكم، الصبح ما يطلعش عليكم في البلد.

ريحان بغضب: إنت بتتعامل كده ليه؟

نظر له حاتم بسخرية ونظر لأمه التي انحنت تأخذ النقود من الأرض وهي تنظر لها بجشع.

وهمّ بالمغادرة دون أن يجيبه لكنه توقف وهو يستدير لهما قائلًا ببرود: أها نسيت حاجة، وأخرج من جيب معطفه مسدس مزود بكاتم صوت فنظرا له بخوف، صوب المسدس على ريحان فاحتضنته والدته قائلة بصوت فزع والنقود تسقط من يدها: إنت هتعمل إيه؟

ابتسم حاتم بشماتة وقسوة وخفض المسدس وضغط الزناد فأصاب ريحان في ساقه، صرخ ريحان من الألم وهو يسقط أرضًا وصرخت والدته بفزع قائلة والدموع تتفجر من عينيها: ابني.

حاتم ببرود وهو يضع المسدس بجيبه: دي علامة بس عشان لو فكرتوا تتكلموا تعرفوا هيحصل لكم إيه.

أم ريحان بصراخ وهي تهجم عليه: يا ظالم منك لله

دفعها حاتم فسقطت أرضًا بجوار ولدها المصاب وقال بقسوة وهو يغادر: ده أول وأخر تحذير، بعد كده حياتكم هي التمن.

تركهما وغادر بينما قال ريحان بألم: الحقيني يا أمي، رجلي، بموت من الألم.

والدته ببكاء وهي تساعده على النهوض: قلبي يا ابني حقك عليا، أني مكنتش عارفة إنه هيعمل كده.

حاول النهوض معتمدا عليها وخرجت به مسرعة إلى المشفي تاركة خلفها النقود أرضًا في المنزل بجوار دم ابنها الذي دفعته ثمنا لطمعها.

دقائق وعاد حاتم إلى المنزل والتقط النقود من الأرض قائلًا ببرود: خسارة فيكم.

قالها وصفع الباب خلفه مغادرا.

الباب الذي تركته أم ريحان خلفها مفتوحًا وفتحت معه على نفسها وعلى ولدها نيران الفراق والغل والانتقام.

****

وقف حاتم في مكان بعيد عن منزل وردة وهو يتابع المنزل باهتمام عندما لمح ليلى تخرج من المنزل فهمّ بالذهاب إليها لكنه توقف عندما رأى والدها يتبعها ويمشيان سويا باتجاه البلدة ومنزل بسمة، ضرب حاتم الشجرة التي تجاوره بضيق وغضب مكتوم فقد أراد الانفراد بها.

بعد قليل وصلت ليلى ووالدها إلى منزل بسمة فقال كمال: كمان ساعة هأرجع أخدك، بعد ما أودي الإيجار للعمدة.

ليلى: براحتك يا بابا

ودعها والدها مغادرًا وهو يقول: مش هتأخر

دقت الباب ففتحت بسمة وعندما رأتها تغير وجهها وقالت بضيق: ليلى

ليلى بابتسامة : إيه مش هتقوليلي إتفضلي؟

بسمة وهي تفسح الطريق: لأ طبعًا اتفضلي بيتك.

دخلت ليلى قائلة بفضول: إنتي قاعدة لوحدك ولا إيه؟

بسمة وهي تقودها إلى غرفتها: أيوه، ماما وعادل راحوا يزوروا خالتي عشان تعبانة شوية.

ليلى وهي تجلس: ألف سلامة عليها وإنتي ما رحتيش ليه؟

بسمة بضيق: ماليش نفس مضايقة شوية

ليلى بثقة: مني طبعًا؟

لم تجبها بسمة ونظرت للجانب الآخر بحزن فقالت ليلى وهي تجلس بجوارها: حقك عليا يا ستي.

بسمة بتنهيدة: ماشي

لكزتها ليلى في ذراعها قائلة بدعابة: بلاش سخافة بقا أنا جاية لحد عندك عشان أصالحك

تأوهت بسمة وقالت بضحكة صغيرة: جاية تصالحيني ولا تضربيني؟

ليلى بدعابة: أها فعلًا أنا هضربك لو ما صالحتنيش دلوقتي حالًا

وهمت بضربها فأوقفتها بسمة وهي تقول بضحكة: خلاص يا مجنونة عفونا عنك.

ليلى بصرامة مصطنعة: أيوه كده قال عاملة نفسها زعلانة قال

بسمة بجدية: بس ده مش هيخليني أبطل أسألك على فكرة.

ليلى بجدية أكبر: يا بسمة أنا خايفة عليكي مش كل حاجة ينفع تتقال

بسمة: طيب طمنيني عليكي، بتقابلي مين، بتشوفي مين، وصلتي لأيه، مش عايزة مصيرك يبقي زي اللي سكنوا البيت قبلك

ليلى بترقب: قصدك وردة صح؟

بسمة بتنهيدة: وريحان اللي سألتيني على بيت والدته قبل كده، صحيح عملتي معاها إيه؟

ليلى وهي تهز كتفيها بلامبالاة: أبدًا شبه طردتني من بيتها، بس ريحان ذوق أوي ومحترم، قابلته كذا مرة.

اتسعت عيني بسمة ذعرًا وقالت بصوت خافت خائف: قابلتي مين؟!

ليلى باستغراب: ريحان يا بنتي مالك؟

بسمة بخوف: ليلى إنتي طبيعية زينا ولا في إيه؟

ليلى بعدم فهم: إيه الكلام ده يا بنتي، يعني إيه؟

بسمة بخوف وهي تبتعد عنها: ليلى لو سمحتي إمشي وياريت تاخدي باباكي وتمشي من البلد خالص.

نهضت ليلى واتجهت إليها قائلة بدهشة: في إيه يا بسمة شكلك خايفة أوي مالك؟

وهمت بلمسها فتراجعت بسمة بذعر قائلة: ليلى إنتي أكيد مش طبيعية

ليلى بدهشة عارمة: ليه بتقولي كده؟

بسمة بخوف: إنتي بتقولي إنك قابلتي ريحان؟!

ليلى باستغراب: أيوه، ودي فيها إيه؟

بسمة بصوت خافت خائف: ريحان مات من تلات سنين يا ليلى.

****

١٢- جريمة جديدة

****

"من السهل عليك تقليد أي شخص في ملبسه، اهتماماته، طريقة حديثه، رائحة عطره، و حتى شكله، لكن من الصعب بل من المستحيل تقليد قلبه، فحتى وإن القيت كلامًا يدل على تشابه القلوب فسوف تفضحك عيناك فالعين لا تكذب أبدًا"

ظلت وردة تجوب أرجاء منزلها القديم ذهابًا وإيابًا وهي تنظر في ساعتها بقلق وتضرب قبضتها في اليد الأخرى، تأملت زهرة بحنان وإشفاق وهي تغط بنوم عميق على أريكة بالمنزل الذي غطت الأتربة أثاثه وأرضياته منذ أن تركته هي ووالدتها.

اتجهت إلى إحدى الشرف وهي تنظر من خلف الستائر خشية أن يراها أحد وقالت بقلق: إتأخرت أوي يا حسام، خير يارب.

نظرت في ساعتها مرة أخرى فوجدتها قد تجاوزت العاشرة والنصف مساءً.

سمعت همهمات زهرة وهي تستيقظ، فألتفت لها فوجدتها تجلس وهي تفرك بعينيها قائلة بنعاس: بابا وصل يا ماما؟

اتجهت وردة إليها وجلست بجوارها وهي تحتضن رأسها بحنان قائلة: لسه يا حبيبتي.

زهرة ببراءة: طيب ما تكلميه في التليفون؟

وردة بتنهيدة: التليفون اللي هنا بايظ.

زهرة بضجر: يوه بقا.

وفجأة سمعت وردة أصوات أقدام تقترب من باب المنزل فسقط قلبها بين قدميها خوفًا.

بينما أسرعت زهرة عندما سمعت الصوت إلى الباب وهي تقول بسعادة: بابا جه.

وردة بفزع لا تعرف مصدره: زهرة استني ما تفتحيش.

و لكن سبق السيف العُزل وفتحت زهرة الباب.

وقف حاتم أمامهما، يتأملهما بعيون تجمع بين الغدر والانتقام، بدون منظاره الطبي، كان في هيئة حسام أخيه، وملابسه أيضًا وشعره حتى رائحة عطره.

احتضنته زهرة من ساقيه قائلة بسعادة: بابا وحشتني.

تأملته وردة وأنفاسها تزداد وتتسارع بخوف وأطالت النظر في عينيه والصمت سيد الموقف بينهما.

و فجأة انتزعت نفسها من تأملها له وأسرعت بسحب ابنتها إليها وهي تقول بهلع وخوف : زهرة، ده مش بابا.

****

"تخيل إن الله أحبك واصطفى روحك بقدرة التحدث مع أطياف الراحلين، تخيل أنك ظللت تتحدث إلى شخص وتعلقت به وفي أخر المطاف اكتشفت أنه مجرد سراب لا يراه غيرك، لا أدري إن كان هناك أشخاص حولي قد حدث معهم هذا فعلًا ولكنني جربت هذا الاصطفاء في منامي مع أطياف الراحلين، مع أحلام ظننت أنها مجرد أضغاث ولكن اتضح لي أنها حقيقية وحدثت"

- ليه ما قولتليش؟ ليه سيبتني فاكرة نفسي بتكلم مع شخص عايش وفي الأخر تطلع سراب؟!

نطقت ليلى كلماتها بصوت مرتجف وهي تقف مع ريحان خلف منزله في ظلام الليل.

ريحان بمرارة: هتفرق معاكي في إيه؟ وبعدين أنا مش سراب.

ليلى باستنكار وهي تبدأ في البكاء: أومال إنت إيه؟ أنا بجد تعبت من المفاجأت دي، أنا عايشة حكاية محدش يصدقها لو حكيتها لحد، أبسط حاجة هيقول عليا مجنونة.

ريحان بوجه جامد: ده قدرك وإنتي إختارتيه أما سيبتي حزنك يتملكك، أنا ووردة واللي زينا ما بننجذبش لأي حد، طاقة حزنه اللي بتجذبنا.

ليلى بسخرية مريرة: وكمان فيلسوف حضرتك.

ريحان بتنهيدة: ولا فيلسوف ولا حاجة، أنا أه إتعلمت، بس بحكيلك من الواقع اللي عيشته، وردة إنجذبت لأمي عشان كانت حزينة على أبويا وإحنا إنجذبنا لك لأنك حزينة على أهلك يعني لو لاحظتي إن معظم الناس اللي بيدخلوا في اكتئاب بعد فقد شخص عزيز بيقولوا إنهم بيشوفوا ناس ماتت ويفتكروهم إتجننوا لكن هما عاقلين وبيقولوا بس الحقيقة اللي عايشنها.

ليلى وهي تغادر بحدة: أنا فعلًا مجنونة عشان وافقت أستمر في الخرافة دى، من بكرة هرجع القاهرة ومماليش دعوة.

تابعها ريحان وهي تغادر قائلا بثقة وصوت عالٍ لتسمعه: حتى لو رجعتي، ما دام حاتم عرفك مش هيسيبك.

قُبض قلبها لذكر حاتم وأسرعت تحث الخطى إلى منزلها لعلها تفلت من لعنته ولكن هيهات

****

جلست بسمة مع والدتها يحتسون الشاي في الردهة حينما فُتح باب المنزل ودخل منه عادل قائلًا: السلام عليكم.

بسمة ووالدتها: وعليكم السلام.

والدته بتساؤل: إتأخرت ليه في المسجد يا عادل؟

عادل بابتسامة: مفيش يا ماما، بس قابلت واحد صاحبي وقعدنا نتكلم شوية.

والدته: طيب أحضر لك العشا؟

عادل بلهفة: ياريت يا بركة، أنا جعان أوي.

نهضت والدته قائلة بسرعة: حالًا يا حبيبي.

تابعها عادل بنظره وهي تختفي في المطبخ ثم قال لبسمة التي كانت تطالع أح الكتب بذهن شارد: بسمة.

نظرت له باهتمام فتابع: ليلى صاحبتك كانت هنا دلوقتي؟

ضيقت بسمة عينيها عند ذكر ليلى وقالت بشك: لأ، بتسأل ليه؟!

عادل وهو يهز كتفيه بحيرة: مفيش، أصلي لمحتها من شوية مروحة من اتجاه بيت أم ريحان فقلت يمكن كانت عندك، مش معقول تكون تعرف أم ريحان يعني.

بسمة وهي تتظاهر بالانشغال في كتابها: تلاقيها كانت بتتمشي بس.

عادل بشك: إنتوا متخانقين؟

بسمة وهي تنظر له مرة أخرى: لا أبدًا، ليه بتقول كده؟

عادل بحيرة أكبر: أومال ليه أول ما حاولت أقرب منها في الضلمة خافت وجريت على بيتهم؟

شعرت بسمة بالقلق عليها فقالت وهي تنهض إلى غرفتها لتهرب من تساؤلاته: أكيد ما تقصدش، تلاقيها بس خافت.

عادل بطيبة: روحي لها بكرة اطمني عليها، أحسن يكون عندها مشكلة.

بسمة وهي تدخل غرفتها: حاضر، هاروح لها بكرة إن شاء الله.

****

جلست ليلى على سريرها في الظلام ودموعها تسيل بصمت وقد ثنت ركبتيها إلى صدرها ودفنت رأسها بينهم.

ممكن أعرف إنتي بتعيطي ليه؟

رفعت ليلى رأسها بسرعة فوجدت طيف وردة أمامها فقالت بخفوت من وسط دموعها: يعني مش عارفة.

وردة بهدوء: لأ مش عارفة.

ليلى بابتسامة مريرة: غريبة مع إن العفاريت بتعرف كل حاجة.

وردة بضيق من الوصف: سيبتي إيه للناس الجاهلة لما إنتي اللي تقولي كده؟! إحنا مجرد أطياف مش هترتاح غير لما تاخد حقها، لكن ما نعرفش غيب ربنا ولا نقدر نتدخل فيه.

نهضت ليلى من سريرها وهي تقول بحدة: اشمعنى أنا؟ إختارتوني ليه؟ ظهرتوا لي ليه؟ أظن هتقولي لي نفس الكلام الخايب اللي قاله ريحان، حزنك و ما أعرفش إيه؟

وردة بخفوت: أيوه، لو كان ريحان قالك لأنك زينا حزينة وطاقة الحزن عندك رهيبة تخلي أي طيف ينجذب ليكي ويطلب مساعدتك، يبقي هو صح دي الحقيقة.

ليلى بعصبية صارخة: بلاش كلام فارغ إنتوا مجرد وهم .. وهم وهفوق منه.

وردة بخفوت وهي تغمض عينيها وتجز على أسنانها: ليلى اهدى، أنا مش مستحملة صوتك.

و قالت بصراخ فجأة كأنها تتألم: كفاية.

نظرت لها ليلى بخوف وشهقت عندما فتحت وردة عينيها بسرعة وقد أحمر وجهها وهي تكمل بصوت أشبه بالصراخ والبكاء: مش قادرة أتحمل الصوت.

ليلى وهي تتكمش بأحد أركان الغرفة: صوت إيه؟!

وردة وهي تضع كلتا يديها على أذنيها: صوت صرخة زهرة في الليلة المشئومة.

ظهر الألم أكثر على وجه وردة وهي تغادر مسرعة: إنتي السبب، أنا جازفت ودخلت لك في غير ليلة اكتمال القمر.

اختفى صدى صوت وردة مع اختفائها بينما صرخت ليلى في الظلام وهي تبكي قائلة: سيبوني في حالي، أنا أضعف من أني أساعد حد، مش عايزة أساعد حد.

انهارت بالبكاء والنحيب وثوان وفُتح باب حجرتها.

دخل كمال وهو ينير الغرفة قائلًا بفزع وهو يُسرع إليها: ليلى في إيه؟

انهارت ليلى أكثر وهي تتشبث بملابسه وعلا صوت نحيبها بينما قال كمال بفزع أكبر: حصل إيه يا حبيبتي مالك؟

ليلي بشهقات من وسط بكائها: بابا أنا عايزة أمشي من هنا، رجعني القاهرة عشان خاطري.

****

انتهت نبيلة من محاولة جعل الصغير ينام بعد أن أصبح يغط في نوم عميق فقبلته على جبهته وأطفاءت الأنوار مغادرة حجرته.

جلست بجوار زوجها أمام التلفاز في الردهة وهي تضع رأسها على كتفه، فقبل شعرها بحنان قائلًا: هشام نام؟

نبيلة وهي تنظر للتلفاز: أيوه الحمد لله.

جلال بتردد: ممكن أسألك سؤال؟

نظرت له نبيلة بتساؤل بينما تنحنح جلال قائلًا: إيه اللي خلاكي وافقتي تجيلي الكويت دلوقتي؟

نبيلة وهي تبعد عينيها عنه: إنت مكنتش عايزنا نيجي ولا إيه؟

جلال بسرعة: لأ طبعًا، إنتي عارفة إني ما أقصدش كده، بس أنا بقالي سنة بتحايل عليكي من ساعة ما اشتغلت هنا وإنتي مش موافقة ايه اللي غير رأيك فجأة؟

هزت نبيلة كتفيها وقالت بجدية: أبدًا تعبت من القعدة في البلد، وهشام إنت وحشته وطلب يجي.

جلال بابتسامة: وحشت هشام بس؟

أدارت نبيلة وجهها عنه وقالت: قصدك ايه؟

جلال بتنهيدة: قصدي إنك بقيتي غريبة معايا، الحب والدفا راح من حياتنا.

نبيلة بضيق: بلاش الكلام الكبير ده .

جلال بأسى: ده مش مجرد كلام، إحنا حياتنا إتبدلت من ساعة ما قررتي إننا نربي كريم و يبقي ابننا.

نبيلة بحدة: اسمه هشام وهو ابننا فعلًا ولا إنت عندك رأي تاني.

جلال بأسى: أنا وافقتك ساعتها بس عشان ما حبيتش أخسرك، بس إحنا سرقنا حاجة مش من حقنا وعشان كده المودة هربت من بيتنا.

نبيلة بحدة: بلاش فلسفة، هشام ابننا وإحنا أحق بيه من إي حد، بعد ما كل عيلته راحت وافتكر إني ساعتها خيرتك بينه وبين انفصالنا وإنت وافقت.

جلال بحدة: أنا ما بتهددش يا نبيلة وقلت لك مكنتش عايز أخسرك ساعتها.

نبيلة بترقب من عصبيته: ودلوقتي عايز تخسرني ولا إيه؟

جلال بسرعة وهو يتمالك أعصابه: لأ طبعا أنا بس بقولك إننا نرجع زي زمان حياتنا مليانة مودة وسعادة.

نبيلة بخفوت: هحاول

جلال بسعادة: المحاولة بس هتسعدني

ابتسمت نبيلة رغمًا عنها بينما أمسك جلال يدها قائلًا بحب: ربنا يخليكي ليا يا أم هشام.

****

انتهت سعاد من تمشيط شعر ياسمين وقبلت رأسها بحنان وهي تحتضنها بأسى وقد سالت دموعها بصمت.

دق باب حجرتها ودخلت والدتها وهي تقول بتردد: الحاج جبريل بره وعايزك يا سعاد.

أسرعت ياسمين بسعادة إلى خارج الغرفة وهي تقول: جدو هنا.

بينما مسحت سعاد دموعها وهي تقول بصوت خافت: حاضر يا ماما جاية ورا حضرتك.

خرجت والدتها بينما ذهبت سعاد أرتدت حجاب أسود على رأسها وخرجت لتجده يجلس مع أختها وياسمين.

نهض الحاج جبريل عندما رأها فسلمت عليه قائلة بانكسار: أهلًا يا حاج نورت.

جلس الجميع فقال جبريل بدهشة: إنتي إتحجبتي يا سعاد؟

سعاد بحزن: أيوه الحمد لله.

جبريل وهو ينظر لساقها التي كانت تمشي عليها ببطء: حمداً لله على سلامتك فكيتي الجبس إمتى؟

سعاد باقتضاب: من يومين

أتت والدتها في هذه اللحظات وهي تضع الشاي أمامهم وظل الجميع صامتين ووالدة سعاد وشقيقتها ينظرون لهم بفضول وقلق

تنحنح جبريل قائلًا: عاملة إيه يا سعاد؟

سعاد بأسى: الحمد لله يا حاج

نوال بضيق: ياريت تدخل في الموضوع على طول يا حاج عشان سعاد تعبانة.

أحمر وجه جبريل حرجًا ونظر لها بغضب بينما لكزتها والدتها قائلة بغضب: نوال إتكلمي مع الحاج جبريل كويس عيب كده

لوت نوال شفتيها باعتراض وهي تهمهم بضيق بينما قال جبريل بحرج وهو يضغط كلماته: سيبيها يا حاجة، الظاهر إن وجودي ما بقاش مرغوب فيه.

والدة سعاد بسرعة: لا والله يا حاج، ده إنت فوق دماغنا.

سعاد باعتذار: حقك علينا يا حاج، نوال ما تقصدش هي بس خايفة عليا.

حرك جبريل عصاه على الارض بتوتر وهو يقول بوجه محمر: حقها يا بنتي

ورفع رأسه قائلًا باهتمام: المهم، أنا عايزك انتي وياسمين ترجعوا معايا البلد

نظر الجميع لبعضهم بدهشة وقالت والدة سعاد بانفعال : إنت بتقول إيه يا حاج؟

أشارت لها سعاد بيدها لتهدأ وقالت باستغراب: بعد كل اللي حصل يا عمي، عايزني أروح للموت برجلي أنا وبنتي.

جبريل بصدق: لو ده حصل، يبقي وجودي علي وش الدنيا ملهوش لزمة يا سعاد.

نوال بتهكم: كلام وبس فعل مفيش

فقالت والدتها بتوعد: إنتي وبعدين معاكي

بلعت نوال لسانها مرة أخرى على مضض بينما قالت سعاد بحزن: نروح ليه يا عمي ابنك ما كلفش خاطره وسأل علينا من ساعة اللي حصل.

جبريل بحرج: أنا عارف إنه مقصر، بس هو معاكي في الحزن والمفروض ما نلومش بعض وقت الشدة.

سعاد بمرارة: بالعكس يا حاج، وقت الشدة يبين البايع من الشاري وحاتم بايعني ملهوش عندي غير ياسمين.

نظر لها الجميع بإشفاق بينما قال جبريل بحرج أكبر: أنا مش هدافع عنه، أنا بس عايز أقولك لو عايزة حق زياد وطارق يرجع لازم إنتي وياسمين تيجوا معايا البلد.

كتمت سعاد بكائها وقالت: إزاي بقا؟

جبريل: ما أقدرش أقولك دلوقتي عشان الكلام ما يتعرفش لما نروح هتفهمي كل حاجة.

نهضت والدة سعاد وقالت بحدة: بنتي مش هتروح البلد دي تاني يا حاج

جبربل بإحراج: ممكن بس تستريحي يا أم سعاد ونتتفاهم.

سعاد بحرج: إقعدي يا ماما لو سمحتي ما يصحش كده.

جلست والدتها على مضض بينما قال جبريل: الظابط اللي ماسك القضية قالي إنك لازم تيجي إنتي وياسمين البلد عشان نعرف نوقع القاتل.

والدة سعاد بأمل: بجد يا حاج؟

جبريل بصدق: بجد و قالي لازم الموضوع يبقي سري

نوال بسخرية وتهكم: كلام ما يدخلش العقل حضرتك متأكد إن اللي قالك كده ظابط ولا بياع جرجير.

سعاد بتوعد: نوال كفاية أوي كده، احترمي اللي أكبر منك، إنتي مش صغيرة على عمايلك دي.

نوال بضيق: الحق عليا إني خايفة عليكي.

لكزتها والدتها قائلة: ممكن تهوينا دلوقتي روحي شوفي بنتك زمانها صحيت

غادرت نوال إلى الداخل وهي تقول بصوت عال: ماشي يا ماما بس أختي مش هتروح هناك أنا هتصل بأكرم وأبلغه.

صمت الجميع حتى غادرت ثم التفتت سعاد إلى جبريل قائلة باهتمام: قولي بقا يا عمي حضرتك تقصد إيه بالكلام ده؟

****

طرقت بسمة باب منزل ليلي ثوان وفتح لها كمال الباب قائلًا بترحيب: بسمة أهلاً يا بنتي إتفضلي

دخلت بسمة برهبة وهي تقول بخوف مكتوم: إزي حضرتك يا عمي يا تري ليلى موجودة؟

أغلق كمال الباب وهو يقول بتنهيدة: موجودة بس مش عارفة مالها نفسيتها مدمرة من ساعة أخر مرة كنا عندك هو إيه اللي حصل؟

بسمة بتوتر: مش عارفة، هي خرجت من عندي كويسة مفيهاش حاجة أنا بس جيت أسأل عنها عشان مش باينة.

كمال وهو يشير إلى غرفة ليلى: أهلًا بيكي في أي وقت يا بنتي هي في أوضتها إدخلي لها

هزت بسمة رأسها له شاكرة واتجهت نحو الغرفة التي أشار لها بينما أوقفها كمال قائلًا: بسمة

التفتت له بسمة بتساؤل فقال: لو عرفتي منها أي حاجة تطمني عليها ياريت تقوليلي

بسمة تنهيدة: حاضر يا عمي

دقت باب الحجرة ودخلت عندما سمعت ليلى تقول بضعف: ادخل

دخلت بسمة وبمجرد أن رأتها ليلى أسرعت إليها وارتمت في أحضانها قائلة باستنجاد: بسمة

ربتت بسمة على ظهرها بحنان قائلة: أنا أسفة يا ليلى إني خوفتك بس مكنش قصدي والله

ليلى بخفوت: عارفة طبعًا أنا اللي اتورطت في حاجات أكبر مني

بسمة وهي تمسك يدها : عادل قالي إنه شافك إمبارح عند بيت أم ريحان

ليلى بصدمة: عادل

بسمة وهي تهز رأسها: أيوه، وقالي إنه حاول يقرب عشان يكلمك طلعتي تجري وإنتي خايفة

ليلى بحزن: هو كان عادل؟ أنا إفتكرته حاتم

بسمة برجاء: بإيدك تسيبي كل ده ورا ضهرك وترجعي تاني مصر

هزت ليلى رأسها بنفي قائلة: ياريت كان ينفع بس قدري خلاص

بسمة بخوف: ليه ما ينفعش؟

ليلي بتنهيدة: لأني قلت لبابا نمشي وليلتها شوفت وردة وريحان في المنام بيترجوني ما أمشيش

بسمة برهبة: كلامك غريب محدش يصدقه بس أنا مصدقاكي

ليلى بأمل: بجد يا بسمة؟

بسمة بصدق: بجد وهساعدك في أي وقت تطلبي مساعدتي بس خلي بالك من نفسك

لم تجبها ليلى، خفضت رأسها فقالت بسمة: إيه رأيك نخرج نتمشي سوا

ليلى بضيق: مش قادرة وكمان خايفة أوي من اللي اسمه حاتم ده بعدما عرفت إن ريحان كمان ميت بسببه، حاسة إنه وحش مخيف بيدمر أي حد يقف في طريقه

بسمة بصدمة: بسببه يعني إيه؟

ثم شهقت بفزع وهي تقول: يعني هو قتل وردة وريحان كمان؟

هزت ليلى رأسها موافقة باستسلام فقالت بسمة بفزع: إزاي؟

ليلى باستسلام: هحكيلك

****

جلس حاتم في ردهة منزلهم في المساء ونادي قائلًا: بدور

لم يجبه أحد فنادى بحدة أكثر قائلًا: يا بدور، نعمات، إنتوا يا أغبيا

أسرعا إليه وقالت بدور: نعمين يا حاتم بيه

حاتم بغضب: إيه مش سامعيني؟

نعمات بحقد دفين: معلش يا سعادة البيه، أصل كنا مشغلين الميه جامد وما سمعناش

أشاح حاتم بيده في الهواء قائلًا: خلاص خلاص إعملوا لي قهوة

همّا بالذهاب إلى المطبخ عندما فُتح باب المنزل ودخلت ياسمين وهي تجري بسعادة قائلة: بابا وحشتني

أسرعت وارتمت في أحضانه فقال حاتم بدهشة: ياسمين إنتي جيتي إزاي؟

همت بإجابته ولكن دخل جبريل ومعه سعاد قائلًا: أهلًا يا بنتي نورتي بيتك

نهض حاتم لاستقبالهم قائلًا بدهشة أكبر: وسعاد كمان؟

تعمدت سعاد عدم النظر إليه وقال جبريل: خد مراتك واطلعوا أوضتكم يا حاتم

سعاد بسرعة: لا يا عمي، ده شرطي اللي قلت لك هتعرفه هنا، أنا وابنك مش هيتقفل علينا باب واحد

حاتم بغضب: أحسن برضه، أنا مش ناقص نكدك أصلًا اليومين دول

ترقرقت الدموع في عيني سعاد بينما قال جبريل بتوعد: حاتم كلم مراتك كويس احترم وجودي على الأقل

أشاح حاتم بيده في ضيق بينما قالت سعاد بأسى: سيبه يا عمي أنا مكنتش منتظره منه غير كده

نظر جبريل لحاتم بتوعد ونادي بصوت جهوري غاضبًا: بدور

أتت بدور مسرعة فقال: طلعي إنتي ونعمات شنط أم زياد على أوضة الضيوف هي وياسمين.

أسرعن الخادمات يحملن الحقائب.

نظرت سعاد لحاتم بخذلان منه وأخذت ياسمين معها

بينما تابعتهم نعمات بنظراتها وفي داخلها مشاعر متداخلة .

****

المحلة الكبري ١٩٨٠

انهمرت الأمطار غزيرة في عصر ذلك في اليوم بمدينة المحلة الكبرى في محافظة الغربية.

فتحت نعمات باب شقة والدها المتواضعة في أحد أحياء المحلة الشعبية وهي تقول: ادخلي يا خالتي، إتفضل يا ريحان

دخل ريحان وهو يستند على كتف والدته والحزن والإجهاد باديان على وجهه وقد أمسك بيده الأخرى عكازًا يستند عليه بدلًا من ساقه المبتورة

أجلسته والدته على أريكة في ردهة المنزل بينما أتت والدة نعمات من الداخل قائلة بحنان وإشفاق: ريحان، حمد الله على سلامتك يا ابني

ريحان بإعياء: الله يسلمك يا خالتي

سملت والدة ريحان على شقيقتها وجلسوا سويًا في صمت

نعمات بتساؤل: بابا فين يا ماما؟

والدتها بقلق: نزل يقابل واحد صاحبه زمانه على وصول

صمتوا مرة أخرى، فنهضت نعمات قائلة لتلطف الجو: طيب أنا بقا هعمل لكم الغدا النهارده بإيدي، تحبوا تاكلوا إيه؟

نهضت والدتها قائلة: لا خليكي الأكل على النار، هاروح أشوفه وأعمل السلطة

نهضت أم ريحان خلفها قائلة: هاجي أساعدك يا اختي

دخلا المطبخ، فتظاهرت والدة نعمات بالانهماك في عمل الطعام بينما قالت أم ريحان بقلق: عايزة تقولي إيه يا فتحية؟ شكلك مش عاجبني من ساعة ما دخلنا

والدة نعمات بتوتر: أصل...

أم ريحان بنفاذ صبر: أصل إيه؟! ما تتكلمي

والدة نعمات كأنها تزيح همًا من على نفسها: أصل بصراحة أبو نعمات فسخ الخطوبة

اتسعت عيني أم ريحان بدهشة وقالت بصدمة: إيه ليه؟ حصل إيه؟

والدة نعمات بحزن: والله يا اختي ما أعرف، أنا لقيته بيقولي كده الضهر وهو نازل

أم ريحان بعتاب: مكنش العشم يا اختي، هي دي أخرتها، عايزين تكسروا قلب ابني بعد اللي بقا فيه

والدة نعمات باعتذار: والله يا اختي ما بأيدي إنتي عارفة ريحان ده ابني بس أبو نعمات بقا مصمم بيقول ما أجوزش بنتي لواحد....

قطعت جملتها حتة لا تجرح أختها أكثر من ذلك بينما قالت أم ريحان وهي تمط شفتيها قهرًا ومرارة: كملي يا اختي، لواحد عاجز برجل واحدة صح

والدة نعمات باعتذار نادمة: سامحيني يا اختي والله ما أقصد

تناولت أم ريحان الخضراوات وتظاهرت أنها تغسلها بالماء وهي تكتم دموعها قائلة: ولا تقصدي، منه لله اللي كان السبب، والرصاصة دخلت في العضم خلت الدكاترة قطعوا له رجله

والدة نعمات بفضول: هو مين اللي عمل كده مش هتحكيلي برضه؟

لم تجبها أم ريحان وهي تغسل الخضراوات وتكتم دموعها التي على وشك الانفجار

في هذه الاثناء كانت نعمات تجلس في مواجهة ريحان في الردهة فقالت بخفوت: إيه هنفضل ساكتين كده؟

ريحان بحزن: عايزاني أقول إيه؟

نعمات بحنان: أي حاجة، بس ما تفضلش ساكت كده

ونهضت لتجلس بجواره وهي تتناول يده بحنان بين راحتيها: ريحان أنا بحبك وعمري ما هستغني عنك

ريحان بأسى: حتى وأنا عاجز كده؟!

نعمات بصدق: في كل حالاتك، هتفضل أملي ومنايا وروحي كمان

ترقرقت الدموع في عيني ريحان قائلًا: بس لو كانوا الدكاترة عرفوا ينقذوا رجلي

نعمات بسرعة وقلبها يتمزق من أجله: حرام عليك، ما تقولش كده، كله خير، ولا كنت عايزهم يسيبوك تموت بسبب الغرغرينا اللي حصلت

انفجر ريحان باكيًا فاحتضنت راسه إلى صدرها قائلة بعيون مليئة بالدموع: كفاية حرام عليك، كده هتموت نفسك

دخل والدها من الخارج في هذه اللحظة فقال بغضب: الله الله إيه اللي بيحصل ده

انتفض الاثنان وقالت نعمات ففزع: بابا أنا...

أخرستها صفعة على وجهها من والدها قائلًا بغضب: اخرسي إنتي، العيب على اللي افتكرناه راجل ودخلناه بيتنا

ريحان بألم من أجلها: عمي أنا ما اقصدش وبعدين نعمات خطيبتي وفرحنا قريب

أتت أم ريحان وشقيقتها من المطبخ على شجارهم

والد نعمات بسخرية: خطيبتك ده إيه، كان زمان يا حبيبي

نظروا له بصدمة وقال ريحان بصدمة: مش فاهم

والدها بقساوة: يعني أنا فسخت الخطوبة وبنتي إتقدم لها عريس تاني ووافقت عليه خلاص

نعمات بصدمة: بابا بتقول إيه؟

والدها بقسوة: اللي سمعتوه، وياريت تخف رجلك يا سي ريحان من هنا، البيوت لها حرمة برضه

ام ريحان بغضب: بقا دي أخرتها، يلا بينا يا ابني

شقيقتها بسرعة وحرج: طيب إستنوا الليلة دي هتمشوا إزاي في المطرة دي

زوجها بغضب وتوعد: أم نعمات

أحمر وجه زوجته حرجًا أكثر بينما قالت أم ريحان لولدها الذي عقدت المفاجأة لسانه: قلت لك يلا

ودخلت تلملم أغراضهم فاستند ريحان على عكازه وأسرع وفتح الباب مغادرًا فأسرعت نعمات خلفه قائلة بلوعة وحزن: ريحان استني

جذبها والدها من يدها وأغلق الباب خلف ريحان قائلًا بتوعد: لو خرجتي من الباب ده هاقتلك

ازداد بكاء نعمات وأتت أم ريحان من الداخل قائلة بصدمة: ريحان فين؟

شقيقتها بسرعة: الحقيه يا اختي، نزل لوحده وهو تعبان

أسرعت والدته خلفه لعلها تلحق به وتنقذه مما أوقعته به و تدعو الله أن يحفظه لها .

نزلت إلى الشارع بسرعة فوجدته يحاول الإسراع علي الرصيف تحت الأمطار وهو يتكأ على عكازه ويمشي بصعوبة

ركضت خلفه قائلة بلهفة أم: ريحان، استنى

لم يجبها ولم يلتفت لها فأكملت ركضها خلفه وهي تنادي: ريحان

نجحت في الوصول إليه وأمسكته من ذراعه وهي تديره إليها قائلة بلهاث: نفسي إتقطع وراك، إيه مش سامعني؟!ي

نظر لها بعيون محمرة ومياه الأمطار غطت وجهه حتى أن الناظر إليه لا يستطيع التمييز بين كونها دموعه أم دموع السماء.

ريحان بصوت خافت: عايزة إيه؟

والدته بحدة خوفًا عليه: عايزة إيه! إنت إزاي تنزل لوحدك؟! يلا نركب مواصلة عشان المطر ده غلط عليك إنت لسه تعبان

ريحان بحسم: مش هروح معاكي سيبيني

استدار ليتركها فجذبته إليها قائلة بحدة: يعني إيه مش هتروح معايا أنا أمك حصلك إيه؟

ريحان بانفجار: مش عارفة حصلي إيه؟! أنا اللي بدفع تمن طمعك وجشعك، أنا اللي حياتي إتدمرت وبقيت عاجز، إنتي السبب، أنا بكرهك

أم ريحان بصدمة: بتكرهني!

ريحان بمرارة: أيوه، مش عايز أشوفك تاني إعتبري ابنك مات

أم ريحان وهي تستعطفه: حقك عليا، أني عملت كل ده عشانك إنت مكنتش أعرف إن الظالم ده هيعمل فيك كده

ريحان بقسوة: يمكن عشان ما بتحسيش، عشان معندكيش تمييز للبني أدم الكويس من الوحش

والدته باستنكار: إنت إتجنيت يا واد؟! هو أنا عشان سكت لك، تسوق فيها، يلا قدامي على البلد إنت محتاج ترتاح

ريحان بهيستريا وهو يمضي في طريقه بأقصى سرعة له: قلت لك مش راجع، مش عايز أعرفك تاني إنتي مش أمي

انعقد لسانها من الصدمة بينما تقدم هو بضع خطوات تحت الأمطار ثم توقف فجأة ونظر لها بخيبة أمل وسقط مغشيًا عليه.

***عودة للحاضر ***

تجمع الناس حول مسجد السيد البدوي في طنطا كعادتهم كل ليلة وارتفعت أصوات الابتهالات من كل مكان حوله تختلط مع أصوات الباعة الجائلين وأصوات الأطفال الذين يركبون الأرجوحة البسيطة حوله وأصوات الناس اللذين يتسامرون ويضحكون.

أمسكت ليلى بيد بسمة قائلة بقلق: أنا مش عارفة سمعت كلامكم ونزلت ازاي من البلد لحد هنا

بسمة لتهدئتها: يا بنتي ما تخافيش ما أنا معاكي أهو وباباكي وعادل كمان، معقول يعني حد هيفكر يأذيكي وإنتي ماشية مع كل دول؟! وبعدين بصي حواليكي البلد كلها موجودة

ليلي بقلق: برضه قلقانة ربنا يستر

بسمة لتطمئنها: خير إن شاء الله، أنا قلت تغيري جو وتهدي أعصابك شوية

ارتفع صوت مزمار بائع غزل البنات فقالت بسمة بفرحة: الله غزل البنات يلا نشتري

والتفت لأخيها ووالد ليلى اللذان كانا خلفهما بخطوات قليلة قائلة بطفولة: بعد إذنكم ممكن نروح أنا وليلى نشتري غزل البنات

كمال بضحك: روحوا يا بنتي

عادل بتحذير: بس ما تبعدوش الدنيا ليل، واشتروا وتعالوا على طول

بسمة وهي تسحب ليلى بسعادة: حاضر

ذهبت ليلى معها وهي تضحك من طفولتها.

أسرعت بسمة خلف البائع الذي يبتعد عنهم فخرجا من الزحام وسبقت بسمة ليلى.

لفت انتباه ليلى مواء قطة صغيرة في أول شارع جانبي مظلم فذهبت في اتجاهها بدون تفكير قائلة بحنان وهي تنحني لتلتقطها: مالك يا صغننة ماما فين؟

لم يسعفها الوقت لالتقاطها فوجدت من يجذبها بقسوة من ذراعها ليلصق ظهرها بالجدار المجاور في الظلام واضعًا يده على فمها قائلًا بقسوة: كنتي فاكرة إني هسيبك كده

اتسعت عينا ليلى ذعرًا حينما قابلت عيناها عيني حاتم الغادرة التي تلمع بهما القسوة لمعة البرق في ليلة عاصفة والذي أخفى نصف وجهه بقبعة رياضية يضعها على رأسه.

طعنها بسكين في بطنها قائلًا بقسوة أكبر وقلب متحجر: معلش الدور عليكي

اختنقت الصرخة في حلقها وهي غير قادرة على صده وهم بطعنها مرة أخرى، عندما سمع صوت بسمة تنادي بقلق: ليلى رحتي فين؟

فتركها وفر هاربًا بينما سقطت هي على ركبتيها وهي تضع يدها على الطعنة وترفعها تتأمل الدماء بصدمة غير مصدقة لتسقط بعدها مغشيًا عليها.

****

١٣- عودة للحياة

****

"إلى من فارقونا وذَبُلت حياتنا من دونهم، ليت البكاء يعيد ما مضى، ليتنا نراكم مرة واحدة حتى وإن كانت سرابًا، ليتنا نهديكم أعمارنا لتنيروا الدنيا مرة أخرى بروحكم الغالية"

جلست ليلى مع والدتها على أريكة خشبية تحت شجرة خضراء ضخمة في حديقة غناء.

ليلى بسعادة: وحشتيني أوي يا ماما إنتي وباسل

والدتها بابتسامة: وإنتي كمان يا حبيبتي، أنا مبسوطة منك أوي يا ليلى

ليلى بتساؤل: ليه؟

والدتها: لإنك قدرتي تتغلبي على حزنك ورجعتي تعيشي حياتك تاني

ليلي بضعف: بس أنا تعبت وعايزة أفضل معاكم

والدتها بعتاب: لا يا حبيبتي ما تقوليش كده، طيب وبابا ما فكرتيش فيه، دي رحمة ربنا اللي خلتك تفضلي معاه

ليلى بضعف أكبر: أنا خلاص جيت لكم

والدتها نافية: لا إنتي لسه مجتيش إنتي بتظهري وتختفي قدامي يعني لسه بتعافري

وضعت ليلى يدها على قلبها بألم ولم تجب بينما أكملت والدتها قائلة بتشجيع: يلا يا ليلى ما تستسلميش، ولادي طول عمرهم أقويا عافري عشان بابا وحق الست دي.

وأشارت إلى الجهة الأخرى فالتفتت ليلى لتجد وردة تقف أمامها وبيدها زهرة، ينظران لها بأعين دامعة.

اقتربت منها وردة قائلة بحزن: عملها فيكي إنتي كمان، بس ربنا أكبر منه وإن شاء

الله هتقومي بالسلامة.

ارتفع صوت يقول بفرح: ليلى وحشتيني أوي.

التفت الجميع فوجدت أخيها يسرع إليها فَرِحًا ويمشي بجواره ريحان بعكازه.

أسرعت والدتهم إليه ووقفت أمامه قائلة بصرامة: ليلى مكانها مش هنا يا باسل، لسه رسالتها ما خلصتش

باسل برجاء: طيب أسلم عليها بس

ريحان بهدوء: بلاش يا باسل هي بإذن الله هترجع، خليها ترجع بهدوء

باسل وهو ينظر بحزن : خلاص رجعت.

التفتوا ليجدوا ليلى قد اختفت من على المقعد وجلست مكانها وردة وابنتها.

****

- القلب اشتغل تاني يا دكتور

نطقت الممرضة الجملة بانفعال غير مصدقة

تنهد الطبيب بارتياح وإرهاق وهو يقول: طيب يلا جهزوا أوضة العمليات بسرعة

خرجت الممرضة من الغرفة مسرعة فقابلها كمال قائلا بقلب مخلوع: طمنيني يا بنتي أبوس إيدك

الممرضة بإشفاق: اطمن حضرتك إن شاء الله هتبقي كويسة.

وغادرت مسرعة بينما قال كمال بدعاء: يارب احفظ لي بنتي يارب، ده أنا ماليش غيرها

ربت عادل على كتفه قائلًا بإشفاق: اطمن يا أستاذ كمال هتبقي كويسة إن شاء الله

كمال بدعاء: يارب

التفت عادل لشقيقته التي كانت تبكي بخوف قائلًا: اهدي بقا يا بسمة

بسمة ببكاء مرير: أنا السبب، أنا اللي خليتها تخرج، قلبها كان حاسس

عادل بصرامة: شكلك عارفة حاجات كتير ياريت تحكيها عشان نعرف ده حصل ليه

نظرت له بسمة وخفضت وجهها أرضًا فقال كمال برجاء: اتكلمي أرجوكي.

أتت ممرضة في هذه اللحظة مع رجال الشرطة قائلة: هما دول أهل المجني عليها يا أفندم، ممكن حضرتك تاخد أقوالهم في الأوضة دي

وأشارت إلى إحدى الغرف وغادرت مسرعة.

****

خرجت نعمات من بوابة منزل الحاج جبريل وهي تلتفت يمينًا ويسارًا خشية أن يراها أحد، وغادرت مسرعة في اتجاه منزل خالتها.

بعد لحظات دخلت سيارة أكرم من البوابة ونزل منها مسرعًا وعلى وجهه علامات الغضب.

دق الباب بعنف ففتحت له بدور قائلة برهبة: أهلاً يا سعادة البيه، حمد الله على السلامة

تجاهل أكرم جملتها قائلا بغضب مكتوم: سعاد فين؟

همت بدور بالإجابة عندما دخل حاتم قائلًا بسخرية كعادته: حضرة الظابط هنا أهلًا أهلًا

هجم أكرم عليه وأمسكه من ملابسه قائلًا بغضب: إنتوا بأي حق تاخدوا أختي وبنتها من بيتي وأنا مش موجود

كتم حاتم غضبه قائلًا: سيب هدومي وبلاش الطريقة دي معايا

جذبه أكرم من ملابسه أكثر قائلًا بتحدٍ: هتعمل إيه لو ما سبتش؟ قول ما أنا متأكد إنك وراك بلاوي

نفضه حاتم بعنف وقد بدأ ذراعه يؤلمه قائلًا: إنت غبي وما بتفهمش

هجم عليه أكرم مرة أخرى قائلًا: مش هسيبك تدمر أختي أكتر من كده

اشتد الشجار بينهما وأسرعت بدور إلى الأعلي قائلة بهلع: ستي سعاد الحقيني يا ستي

وصلت إلى الغرفة فخرجت سعاد منها قائلة بانزعاج: إيه في إيه صوتك عالي وياسمين نايمة

بدور وهي تلتقط أنفاسها: الحقي يا ستي، سي حاتم وأخوكي ماسكين في خناق بعض تحت

سعاد بذعر: أكرم هنا

وأسرعت إلى الأسفل وخلفها الخادمة

أسرعت سعاد وهي تضغط على ساقها أكثر من اللازم فقد فكت جبيرتها قبل قدومها بأيام قليلة فقط.

نزلت السلم بصعوبة والخادمة تنقذها من السقوط مرات عديدة حتة وصلت أسفل الدرج ولم تستطع الضغط أكثر من ذلك فسقطت أرضًا جالسة وهي تقول بهلع: أكرم بتعمل إيه؟

التفت لها الاثنان وأسرع اليها أكرم قائلا بفزع: سعاد إنتي كويسة؟

عدل حاتم ملابسه واتجه إليهم ببطء وهو ينظر لأكرم بغيظ وكره، ويمسك ذراعه بيده الأخرى.

سعاد بابتسامة شاحبة: الحمد لله، إنت رجعت إمتى؟ مين اللي قالك إن أنا هنا؟

واستطردت بضيق: أكيد نوال، حسابها معايا، أما اشوفها بس

أكرم بعتاب: كان لازم تقولي، ما دام إنتي وماما ما عملتوليش حساب

حاتم بسخرية: عشان ظابط فاكر نفسه له قيمة

نظر له أكرم بغيظ وقال بغضب: غلطة عمرنا إن بابا الله يرحمه وافق يجوزك أختي

حاتم بسخرية أكبر: إنتوا كنتوا تطولوا أصلا

نظرت له سعاد بصدمة من وقاحته بينما نهض أكرم ممسكًا بملابسه مرة أخرى قائلًا بغضب هادر: مش هسيبك تدمر أختي وبنتها أكتر من كده ولا هنسمع كلامك السخيف ده تاني

حاتم بغضب مماثل: إنت إنسان همجي، دول مراتي وبنتي يعني مستحيل أضرهم

حاولت سعاد الفصل بينهما وهي تقول بصراخ: حرام عليكم كفاية كده

أكرم بغضب هادر: ده جايبكم هنا عشان يحصل لكم اللي حصل لطارق وزياد قبل كده.

تدخلت بدور التي كانت تشاهدهم بخوف قائلة باندفاع: سي حاتم ملهوش دعوة، أني شفت سي طارق يوم الحادثة مكنش سي حاتم معاه

نظر الجميع لها بصدمة بينما أفلت أكرم حاتم وتوجه إليها قائلًا وهو يضيق عينيه: وإنتي عرفتي منين بقا؟

بدور بتلعثم وارتباك: أني أني .. أني ما أقصدش دي كلمة وخلاص عشان تسيبوا بعض

سعاد برجاء: بدور لو عارفة أي حاجة قوليها وما تخافيش

بدور وهي علي وشك البكاء: ما أعرفش حاجة، أني ما عملتش حاجة والله

أمسكها حاتم من ملابسها وشعرها بقسوة فصرخت ألمًا

حاتم بصرامة مخيفة: سيبوها لي بقا، أنا هعرف أخليها تتكلم

وجذبها بقسوة إلى الخارج وهي تستنجد بسعاد بينما أسرع أكرم خلفه قائلاً بصرامة:

إستني عندك إنت هتعمل إيه؟

أتى الحاج جبريل في هذه اللحظات ومعه الضابط محسن

جبريل لحاتم بصرامة وهو يفلت بدور من يده: إنت اتجننت بتعمل في البت كده ليه؟

حاتم بغضب: المجرمة دي لها علاقة بموت الولاد

بدور ببكاء بسرعة: والله ما عملت حاجة يا حاج، أني هحكي لكم اللي شفته وحصل بس والله كمان مرة ما عملت حاجة

نظر لها الجميع بشك وقال الضابط: أنا هأعرف إذا كان ليكي علاقة ولا لأ

ونادي على عسكري من السيارة التي تنتظره قائلا: حط البت دي في العربية لحد ما أجيلك

أدى العسكري التحية وأخذ بدور إلى السيارة وهي تبكي بشدة.

سعاد بإشفاق: حرام دي غلبانة، أنا متأكدة إنها ما عملتش حاجة

الضابط: هنعرف هنعرف يا مدام، مفيش حاجة بتستخبي

حاتم بقسوة: ياريت عشان كل واحد ياخد جزائه

تفحصه محسن قائلا بلهجة ذات معني: فعلا كل واحد لازم ياخد جزائه

والتفت لأكرم قائلًا: أكرم باشا واحشني أوي

سلم عليه أكرم قائلا: وإنت كمان كان نفسي أشوفك في ظروف أحسن من دي

جبريل بكرم: إحنا هنقف على الباب كده، إتفضلوا جوه

جلس الجميع في الداخل فقال جبريل: مكناش نعرف إنك هنا يا أكرم، محسن بيه جاي بالصدفة وقال يجي يفهم سعاد بالمرة اللي هيحصل

أكرم بفضول: خير كان عندك شغل هنا ولا إيه؟

محسن وهو ينظر لحاتم: كنت جاي مع زميلي عشان نعاين بيت واحدة اتقتلت في طنطا

سعاد بفزع: واحدة من البلد هنا؟

جبريل بإشفاق: أيوه، بنت مدير المدرسة الجديد ربنا يصبره

ظهرت ابتسامة شماتة على وجه حاتم لم يلحظها إلا محسن الذي رمقه بازدراء بينما قالت سعاد بحزن: لا حول ولا قوة الا بالله، البلد دي فيها لعنة ولا إيه

محسن بلهجة ذات معنى: أوقات اللعنة بتبقى عبارة عن شخص واحد يا مدام

أكرم بإشفاق: وإمتى حصل الكلام ده؟

محسن: أول إمبارح بالليل بس أكيد المجرم مش هيفلت بعملته

نظر له حاتم بشك ولكنه لم يكترث وهو يبتسم بسخرية بينما قال محسن بتنهيدة: خلينا دلوقتي في نعمات.

****

إحنا هننفذ بكرة بالليل يا نعمات

نطقت أم ريحان الجملة في هدوء وهي تضع ملابسها في حقيبة قماشية

نعمات بتردد: وإنتي مستعجلة ليه المرة دي، إنتي مش كل مرة كنتي بتنفذي والعيال عندهم ٨ سنين؟!

أم ريحان بغل: أني كنت بعمل كده عشان يفتكر إن عفريتة وردة هي اللي بتموتهم عشان هو موت بنتها في نفس العمر بس خلاص كفاية كده أني عايزة أستريح ونخلص

نعمات بتنهيدة: ياريت نخلص، ما كفاية كده اتنين قصاد واحد وخلاص

أم ريحان بقسوة: قلت لك قبل كده، ولاده كلهم قصاد ابني، أني كل يوم بشوف ريحان حوالين البيت، لازم يرتاح في تربته

نعمات بألم: عمر الميت ما يرتاح بموت حد ملهوش ذنب

أم ريحان بسخرية: بقولك إيه، بلاش كلام ملهوش لزمة، خدي الحلاوة دي إديها للبت تاكلها بكرة قبل ما تاخديها، أني حطيت فيها خلطة الهلوسة زي كل مرة

قالتها وهي تعطيها حلوى مغلفة فتناولتها نعمات قائلة: جبتيها من عند العطار برضه؟

أم ريحان بسخرية: أومال من الأجزاخانة يعني، يلا عشان ما تتأخريش عليهم وزي ما قلت لك بكرة الساعة اتنين بعد نص الليل

نعمات بخوف: ما بلاش المرة دي يا خالتي، قلبي مش مطمن

أم ريحان بغضب: وحق ريحان هتسيبيه مش عايزة تمشي من البلد دي

نعمات بحزن وأعين دامعة: أكيد عايزة أمشي، كان نفسي أحضر عزا أبويا اللي مات بحسرته بعدما هربت وسيبتهم

أم ريحان بأسى: هو اللي فرق بينكم وما رحمش ابني، خلصي عشان ترجعي لأمك اللي بقالها سنين ما تعرفش إنك هنا

نعمات باستسلام وهي تغادر: حاضر

فتحت الباب فقالت أم ريحان: ما تنسيش بكره الساعة اتنين بعد نص الليل وبعدها هنسيب البلد خالص.

أومأت نعمات برأسها موافقة وأغلقت الباب خلفها.

كانت الشمس قد غربت وارتفع صوت أذان المغرب، فقالت بتنهيدة حزينة وهي تنظر للسماء: سامحني يارب، أنا عارفة إني مجرمة بس النار اللي جوايا مش هتطفي غير أما أحرق قلبه على أغلى ما ليه.

خُيل لها أنها رأت ريحان يقف بعكازه تحت شجرة خلف منزل والدته ففرت دمعة من

عينها وأغلقتها بقوة وهي تتذكر لحظة وفاته.

***

- السخونية مش راضية تنزل يا نعمات أني خايفة على الواد أوي.

قالتها أم ريحان و هي تعصر قماشة مبللة وتضعها على رأس ريحان الذي يرقد بحمى شديدة.

نعمات بألم من أجله وهي تمسك يده بقوة: إن شاء الله هيبقي كويس، طيب ما فضلتوش في المستشفي ليه يا خالتي، أني مش عارفة حصل له كده ليه؟

أم ريحان بحزن: بعدما نزلنا من عندكم وقع من طوله في المطرة والدنيا مغرقاه، بس الدكتور قال إنه كويس وإن دي حاجة بسبب الزعل.

نعمات وهي تضع يدها علي جبينه: أومال إيه اللي حصل تانى بس؟

أم ريحان وهي تمسك بكائها: أني مش عارفة حاجة، أني تعبت، منه لله اللي عمل فيك كده يا ابني.

نعمات وهي تضغط كلماتها: أيوه هو مين بقا فهميني كل ده حصل ليه؟

أم ريحان وهي تشيح بوجهها: بعدين أما ريحان يقوم لنا بالسلامة

وقالت لتداري أمرها: روحي غيري الميه، دي سخنت خلاص وبعدها روحي عشان تلحقي توصلي المحلة قبل أبوكي ما يرجع من السفر ويعرف إنك خرجتي.

حملت نعمات إناء الماء ودخلت زاوية المطبخ الصغيرة لتملأه من الصنبور فسمعت صوت مواء قطة فزعة تحت النافذة امتزج بنعيق غراب دوى في الخارج ففُزعت وأحست بقبضة في قلبها.

خرجت وهي تحمل الإناء فارتفعت صرخة أم ريحان وهي تحتضن ابنها قائلة بلوعة

وبكاء مفاجئ: ابني لأ، ريحان ما تسيبنيش

ونظرت لنعمات قائلة بهلع وبكاء: ريحان مات، مات يا نعمات.

سقط الإناء من يدي نعمات وهي تنظر له غير مصدقة وقد انهمرت دموعها.

****

عودة للحاضر

فتح جلال باب المنزل ودخل وهو يحمل الطفل الصغير وخلفه نبيلة.

نبيلة بإرهاق وابتسامة: كان يوم حلو أوي يا حبيبي ربنا يخليك لينا

جلال وهو يذهب باتجاه غرفة الطفل: أنا مش عايز من الدنيا غير إني أشوفكم مبسوطين

نبيلة بامتنان: أكيد يا أبو هشام، ده حتى هشام نام من كتر اللعب و التنطيط

جلال بحنان وهو يضعه بسريره: ما رحمش نفسه لعب

نبيلة وهي تخلع للطفل حذائه: ربنا يخليه لينا ويلعب زي ما هو عايز.

ارتفع رنين الهاتف في الصالة، فقال جلال باستغراب: الرنة دي من مصر خير مش عوايدهم يتصلوا بالليل كده

نبيلة وهي تبدل ملابس الطفل النائم: تلاقيهم بس عايزين يطمنوا علينا، روح رد وأنا هاغير لهشام وجاية وراك.

ذهب جلال للرد وفي غضون دقائق انتهت نبيلة من تبديل ملابس الصغير ودثرته في سريره وخرجت مطفئة أنوار الغرفة خلفها.

خرجت لتجد جلال يجلس بالردهة وعلى وجهه علامات الحزن والتوتر.

نبيلة بقلق: إنت قفلت بسرعة كده ليه، مين اللي كان بيتكلم؟

تجاهل جلال سؤالها قائلاً بإشفاق: إحنا لازم ننزل مصر بكرة

تصاعد القلق في قلب نبيلة قائلة بخوف: ليه حد حصل له حاجة ؟

لم يجبها جلال ولكن وجهه أجاب عليه فقالت بشهقة فزعة: ماما!

أمسكها من كلتا يديها قائلًا: ادعي لها بالرحمة

نبيلة ببكاء شديد: ماما ماتت، ماتت وسابتني يا جلال

احتضنها جلال قائلا بثبات : اهدى يا حبيبتي اهدى، ده أمر ربنا

نبيلة ببكاء: أنا لازم أنزل مصر دلوقتي، أمي مش هتتغسل وأنا مش موجودة

جلال: اهدي بس، إن شاء الله بكرة نكون هناك، أنا هنزل أحجز تذاكر وما تقلقيش هنكون هناك في أقرب وقت.

****

أشرقت الشمس على قرية تشبعت بالحزن وفقد الأحبة، قرية ما دخلتها زهرة إلا وأصابها الذبول، قرية وردة أو قل قرية وردة وريحان.

انتهت نعمات من غسل أطباق الفطور فدخلت عليها سعاد قائلة ببرود: إعملي لنا شاي يا نعمات

نعمات بخضة: ها، حاضر يا ست سعاد

سعاد بتفحص: مالك مش علي بعضك ليه؟

نعمات وهي تملأ أبريق الشاي بالماء: لا مفيش أصل شغل البيت هدني لوحدي البت بدور كانت شايلة معايا برضه

سعاد بهدوء: ما قلنا لك أمها تعبت وبعتوا خدوها.

نعمات وهي تشعل الموقد: ماشي يا ستي، ربنا يشفيها

سعاد وهي تغادر: يلا خلصي الشاي وهاتيه في الڤرندة وما تنسيش لبن ياسمين.

خرجت سعاد إلى شرفة المنزل التي يجلس بها جبريل مع حاتم وأكرم وياسمين.

جبريل برزانة: اوعي تكوني بينتي لها حاجة يا سعاد

سعاد: اطمن يا عمي، أنا مش ساذجة عشان أنبهها

ياسمين بفضول: هي مين يا ماما، نعمات ولا إيه؟

نظر الجميع لبعضهم فقال أكرم ليلهيها: تعالي يا ياسمين نتمشى مع بعض في الجنينة

ياسمين بسعادة: يلا يا خالو

حاتم بتهكم: مش هتقولنا محسن صاحبك خدك معاه ليه إمبارح؟

أكرم ببرود: هو أنا بسألك بتعمل إيه وبتروح فين؟

جبريل بسرعة: هو ما يقصدش يا ابني، أكيد خمن إنه كان عايزك في القضية

أكرم وهو ينظر لحاتم باحتقار: لا أبدا إحنا كنا بنتكلم في موضوع تاني

حاتم ببرود: موضوع إيه؟

تجاهل أكرم سؤاله قائلًا: يلا يا ياسمين

غادر معها بينما قال حاتم لسعاد ببغض: شايفة عمايل أخوكي محدش مالي عينه

نفخت سعاد بضيق وهي تدير وجهها الناحية الأخرى بينما قال جبريل بصرامة: حاتم مش وقت لعب العيال ده، خلينا في نعمات ربنا يعدي الأيام دي علي خير

حاتم بغضب مكتوم: سبحان من صبرني عليها هي كمان

سعاد بسرعة وصوت منخفض: طيب خلاص عشان هي جاية علينا

صمت الجميع وأتت نعمات وهي تضع المشروبات أمامهم وهي تشعر أن أعينهم تخترقها من الداخل بل وتحرقها حرقًا.

****

جلست بسمة بجوار ليلى قائلة بسعادة: حمد الله على سلامتك يا لولا

ليلى بابتسامة باهتة: الله يسلمك يا بسمة، لولاكي كان زماني الله يرحمني

ربت كمال على يدها قائلًا بحنان: بعد الشر عنك يا حبيبتي

بينما قالت بسمة بخجل: لولايا إيه بس، أنا ندمانة ندم عمري إني خليتك تنزلي أصلًا من البيت وكمان سيبتك في الزحمة لوحدك.

ليلى بهدوء: ما تقوليش كده، ده نصيب وكان هيحصلي حتى لو كنت في سريري، المهم إنك لحقتيني الحمد لله

عادل بابتسامة: الحمد لله إنك بخير، وإن شاء الله اللي عمل كده ياخد جزائه

كمال بغضب مكتوم: يارب نفسي أشوفه عشان أخد حقي بإيدي منه

ليلي بهدوء: هون على نفسك يا بابا محدش بيهرب من عقابه

عادل: بس حلوة أوي فكرة إنكم تنشروا في البلد إنه نجح في اللي عمله

كمال بتنهيدة: كان لازم نعمل كده عشان يطمن والبوليس يعرف يجمع كل الناس اللي ليلى قالت عليهم بهدوء

بسمة بتنهيدة: حكاية أغرب من الخيال مش مصدقة إن ابن أطيب راجل في البلد يعمل كل الجرايم دي

عادل: لا صدقي حاتم أنا كنت صغير أما انتشرت قصة حبه لوردة ومطاردته ليها دي أما اختفت من البلد قلب الدنيا عليها، أنا فاكر إنه كان بيمشي يشد الطرح من على وشوش البنات عشان شاكك إنها تكون واحدة فيهم

كمال بنفور: ده أكيد شخص مش طبيعي، هو الحب بالعافية وجاله قلب إزاي يقتل مرات أخوه وبنته

والتفت إلى ليلى قائلًا بعتاب: وإنتي إزاي تخبي عليا إنك بتشوفي كل ده في البيت، صحيح مكنتش هصدقك وكنت هارجع بيكي القاهرة بس كنت المفروض أعرف

ليلى بخجل: أنا أسفة يا بابا، أنا أصلًا كنت ناوية أمشي وأسيب كل حاجة لأني مكنتش عارفة هثبت عليه الكلام ده إزاي، قلت محدش هيصدقني وهيقولوا عليا مجنونة

بسمة: دلوقتي الظابط صدقك لأن مفيش دافع إنه يخلص منك غير عشان كده

عادل بتأثر: سبحان الله، رغم إنه هو وأخوه الله يرحمه توءم إلا إن أخوه كان ملاك، راجل بجد

دق باب الحجرة ففتح عادل قائلًا: أهلاً يا حضرة الظابط

الضابط بابتسامة: صباح الخير

رد الجميع: صباح النور

الضابط: حمد الله على السلامة

كمال بشكر: الله يسلمك يا أفندم

الضابط وهو ينظر إلى ليلى: مدام نبيلة وصلت المطار هي وجوزها وابنها

ليلى بابتسامة: كويس بداية النهاية لكل ده

الضابط: خلي بالك لو ما قدرناش نثبت عليها كلامك ده هيبقي الوضع صعب لأني

خدت القرارت دي علي مسئوليتي الشخصية أنا وحضرة المقدم محسن

ليلى بثقة: إن شاء الله هتقدروا تثبتوه وكل واحد ياخد جزائه

الضابط: جهزي نفسك عشان هتروحي البلد بالليل

كمال بصدمة: ازاي بنتي لسه تعبانة وغلط تخرج دلوقتي

الضابط: معلش يا أفندم لازم تروح عشان نعرف نضغط على حاتم وما تخافش أنا وزمايلي كلنا هنبقي حواليها، إحنا خدنا إذن من النيابة بالمهمة والدكتور قال إنها تمام ما دام هتلبس تقيل وتروح في عربية مريحة

نظر له كمال بعدم اقتناع بينما قال عادل ليهدئه: خلاص يا أستاذ كمال، ده شغلهم وإحنا كمان هنبقي معاها وإن شاء الله خير

نظر كمال إلي ليلي بحنان ممزوج بالقلق قائلًا وهو يمسك يدها: ربنا يستر.

****

خرجت ياسمين من الحمام فقابلتها نعمات بمنشفة قائلة وهي تساعدها في تجفيف وجهها: وحشك طارق يا ياسمين؟

ياسمين بحزن: طبعا وحشني

نعمات ببرود: نفسك تشوفيه؟

ياسمين بلهفة: أيوه هو ينفع؟ بس كله بيقولي خلاص ما ينفعش نشوفه تاني

نعمات ببرود: أنا هخليكي تشوفيه

ياسمين بفرح طفولي: بجد إزاي؟

تلفتت نعمات حولها لكي تتيقن أن لا أحد يراها وأخرجت من جيبها الحلوى قائلة وهي تعطيها لياسمين: خدي الشوكلاته دي كليها قبل ما تنامي وهاجي أخدك نروح لطارق

سوا بالليل.

تناولتها ياسمين بفرح وهي تفتحها فأوقفتها نعمات قائلة بتحذير: لأ مش دلوقتي قلت لك قبل ما تنامي واوعي حد يشوفها معاكي أو يعرف مش هخدك معايا

ياسمين بسعادة وهي تدسها في جيب بنطالها: حاضر حاضر بس ما تضحكيش عليا

نعمات ببرود قاسي: أكيد مش بضحك عليكي

أتت سعاد في هذه اللحظة قائلة بعصبية: ياسمين كل ده في الحمام؟

نعمات بارتباك: دي لسه خارجة يا ست سعاد، كنت بانشف لها وشها

ياسمين ببراءة: أيوه يا ماما

سعاد وهي تنظر لنعمات بشك: طيب يلا عشان تتغدي زمان أكلك برد.

ذهبت معها ياسمين ونعمات تتبعهم بنظرات تتمزج فيها القسوة والانتقام مع الحزن وتأنيب الضمير.

****

توقفت سيارة أجرة أمام منزل العمدة ونزلت نبيلة منها وهي تركض إلى داخل منزل أخيها وتبكي قائلة: ماما

نزل جلال من السيارة وهو ينزل الطفل قائلًا:: يلا يا هشام

هشام بحزن طفولي: ماما دخلت وسابتني

جلال بإشفاق: معلش يا حبيبي أصل ماما تعبانة شوية

نادي جلال على أحد الخفراء ليساعد السائق في تنزيل الحقائب

الخفير بترحاب: حمد الله على سلامتكم يا سي جلال

جلال وهو ينظر حوله باستغراب: الله يسلمك، أومال صوان العزا بتاع الستات فين؟

الخفير بدهشة: عزا إيه لمين؟

جلال بحيرة: عزا الست الكبيرة ايه مالك؟

الخفير بدهشة أكبر: الست الكبيرة كويسة وبخير يا سعادة البيه، مين اللي قال لك الكلام ده

عندها سمع جلال صوت نبيلة تصرخ كأن أحد يضربها في الداخل فحمل هشام ودخل مسرعًا.

وجد شقيقها يمسكها من شعرها بقسوة وغضب قائلًا: بقا تشتركي في قتل بنت عمك وكمان تختطفي ابنها وتقولي ابنك.

حاولت والدتها تخلصيها من يده وهي تقول بفزع: بالراحة علي أختك كده هتموتها

وضع جلال الطفل الذي ينظر لهم بفزع وقد بدأ في البكاء.

وأسرع يخلص زوجته من يدي أخيها وهو يحميها خلفه قائلاً بغضب: إيه ده؟ إنت إزاي تمد إيدك علي مراتي؟!

شقيقها بغضب هادر: ده أنا هدفنها بالحيا، لو ما قالتش الحقيقة دلوقتي

أتت زوجته من الأعلي قائلة بفزع: اهدى بس يا أبو أحمد كده الناس هتسمع بينا

جلال بغضب هادر:هو إيه اللي يهدي؟! إنتوا جايبنا من أخر الدنيا بكدبة عشان إيه بالظبط

شقيق نبيلة بغضب وهو يدفعه في صدره: يعني مش عارف؟! ما إنت شريكها، فضحتونا وجبتوا راسنا في الطين

ازداد بكاء نبيلة وهي تحتمي بأحضان والدتها بينما أمسك الطفل بطرف فستانها قائلًا

ببكاء شديد: ماما

همت نبيلة بحمله عندما التقطته زوجة شقيقها قائلة بطيبة: سيبهولي أنا هاخده فوق معايا حرام عليكم هتفزعوه

حملته إلى الأعلى وهي تهدئه بينما دخل أحد الخفراء مع الضابط محسن من الخارج سلم عليه العمدة قائلًا بغضب مكتوم: أهلًا يا محسن بيه، هما لسه واصلين

محسن: حمد الله على السلامة

أمسكت نبيلة بيد جلال تنشد الأمان وهي تقول لأخيها بخوف باكية: إنت جايب لنا البوليس هي دي أخرتها؟!

جلال بغضب: أنا مش هسكت عن اللي بيحصل ده، إحنا مش مجرمين عشان تجيبونا بالطريقة دي وكمان جايبين لنا البوليس

محسن بهدوء: محدش قال كده، إحنا جايبينكم عشان كنا عارفين إن المدام مكنتش هتجيب الطفل غير بالطريقة دي

نبيلة بدفاع واهن: ده ابني، إنتوا عايزين مننا إيه؟

صفعها أخيها على وجهها قائلًا بقسوة: إنتي لسه هتكدبي

صرخت نبيلة ألمًا وهي تسقط أرضًا، فاحتضنتها والدتها مرة أخرى قائلة بفزع: بنتي

أمسكه جلال من ملابسه قائلا بغضب: إنت زودتها أوي

فض محسن بينهما قائلا بضيق: يا جماعة مش كده، إحنا لازم نقعد ونتكلم بالعقل

العمدة بغضب: هما خلوا فيا عقل، أخر حاجة كنت أتوقعها إنهم يكدبوا علينا السنين دي كلها وإحنا بكل غباء نصدقهم

نبيلة بهيستريا وهي تنهض مستندة على والدتها: إنت السبب

نظر لها الجميع بصدمة فأكملت ببكاء: إنت كنت عايزني أسيب جلال حب عمري عشان الخلفة، إنت ما فكرتش فيا، عايرتوني ودبحتوني كل مرة كنت باجيلكم هنا

هم أخيها بصفعها مرة أخرى قائلا بغضب: كمان أنا اللي بقيت السبب

أمسك جلال يده قائلا بانكسار وأعين دامعة: كفاية كده، أنا اللي طلبت منها نربي هشام، هي ملهاش ذنب

شقيقها بغضب: وإنت كمان اللي قلت لها، تسلم بنت عمها لابن جبريل يموتها؟! مش كفاية إنها ساعدتها تهرب وتجيب لنا العار، لأ كمان تشترك مع أكبر عدو ليها

نبيلة ببكاء أكبر وهي تضع كفيها على وجهها: أنا مكنتش أعرف إنه هيموتها هي وزهرة والله ما كنت أعرف

جلال بصدمة: يعني إنتي فعلا سلمتيهم لحاتم يا نبيلة، يعني حاتم قتل وردة وزهرة كمان وإنتي كنتي عارفة؟!

والدتها بصدمة باكية: ردى علي جوزك، الكلام ده حصل فعلا يا نبيلة؟

شقيقها بغضب: إنتي لسه بتسألي يا أمي، ما كل حاجة واضحة أهي،

لأ وجت بكل بجاحة بعدما قاطعتنا سبع شهور تقول حملت وخلفت وخفت أقول عشان يكمل والحسد

تدخل محسن قائلا وهو ينفخ بضيق: ممكن بقا نوقف المهزلة دي وتسيبوني أشوف شغلي

العمدة وهو ينفخ بضيق: اتفضل يا محسن بيه

جلس الجميع وقال محسن لجلال: هشام ابنكم ولا لأ يا أستاذ جلال؟ الكلام اللي بينا ده مش رسمي لحد ما أعرف اللي أنا عايزه

جلال بانكسار: لا مش ابننا

مسحت نبيلة دموعها وهي تقول بحزن وكسرة : ما تحاسبوش جلال، أنا السبب في كل حاجة

محسن باهتمام: إزاي؟ ممكن تحكي لنا اللي حصل

نبيلة بحزن: الكلام بدأ من أكتر من خمس سنين لما جيت البلد في السر عشان أقابل حسام كنت فاكراه لسه عايش.

****

وصلنا يا مدام.

نطق سائق سيارة أجرة جملته هذه وهو يحدث نبيلة التي كانت تجلس في المقعد الخلفي من السيارة.

نظرت نبيلة في الظلام الذي يغرق البلدة وقالت بتوتر: تمام شكرا يا أوسطي

وأخرجت نقود من حقيبتها قائلة وهي تعطيه إياها: ده حسابك

نزلت من السيارة عند أول البلدة وأسرعت تكمل الطريق سيرا على الأقدام

وهي تحدث نفسها بتوتر: يارب ألاقيك بسرعة يا حسام قبل ما حد يشوفني

أسرعت إلى سرادق العزاء الذي يقام أمام مسجد القرية قائلة: أكيد هو هناك ده عزا أخوه يعني

نظرت من بعيد وهي تقف خلف شجرة ورأت أخيها يجلس مع أكابر البلدة يواسون الحاج جبريل الذي يبدو عليه الانكسار والبكاء.

أخذت تبحث عن حسام بنظرها فلم تجده بالسرادق فقالت بضيق: يووه هألاقيك فين دلوقتي يا حسام؟

حاتم ببرود قاسي من خلفها: ما ينفعش أنا، لازم حسام يعني؟

التفتت له نبيلة بذعر وهي تنظر له بصدمة ولنظارته الطبية التي يتميز بها.

نبيلة بشهقة مكتومة: حاتم

حاتم بابتسامة باردة: أومال مين، عفريته؟

نظرت نبيلة للعزاء ونظرت له مرة أخرى بهلع قائلة:أومال ده عزا مين؟

لم يجبها حاتم وإنما نظر لها بعيون تجمع بين الغدر والانتقام فقالت بشهقة أكبر: حسام؟! ما هو إن مكنش إنت يبقي هو.

حاتم بابتسامة ساخرة: عليكي نور أخيرًا فهمتي

وجذبها من ذراعها أمامه بقسوة وهو يبعدها عن مكان العزاء أكثر قائلا: يلا قدامي، ده أنا مستني ست الحسن أو الجاسوس بتاعها اللي هتبعته من إمبارح

نبيلة بألم من جذبه لها: إنت اتجننت؟! إزاي تتعامل معايا كده؟!

أخرج حاتم مسدسه من جيبه قائلا بقسوة وهو يضعه بجانبها: إنتي هتمشي معايا بالذوق ولا هي ديتك عندي رصاصة واحدة ومش هتصعبي عليا

نبيلة بتلعثم من الخوف: حاتم إنت إتجننت!

ضربها حاتم تحت عينيها بكعب مسدسه قائلا بقسوة: قلت لك امشي قدامي

صرخت نبيلة ألما وقد تفجرت الدموع من عينها قائلة بصراخ وهي تضع يدها على عينيها: يا حيوان

دفعها حاتم أمامه بقسوة وهو يقول: يلا مش عايز كلام كتير

مشت نبيلة أمامه وهي تبكي بشدة ولا تعلم ما ينتظرها أو ما سيحل بها وبصديقة عمرها وابنة عمها.

****

الجزء الأخير

وقت الحساب

****

"ليس الانتقام شفاء للصدور ولكنه موت للقلوب، زيادة للشقاء، بحر من عدم الإيمان يسقط به من اتبع شيطانه وغل قلبه"

دفعها حاتم بقسوة أرضا في أحد المخازن القديمة التي يمتلكونها فأصطدمت بقطع خشبية قديمة وهي تصرخ بألم وتنظر له برعب، فمن أمامها إنسان سخر رغبته للانتقام فقط وسفك الدماء، يحاسبهم على رفضهم له، يظن أنهم سلبوه حقه، إن كان هذا حقه من الأساس ولكن من غيّب عقله وعاش دور الضحية، لا يعرف قلبه سوى الكراهية لكل من يعصي أمره أو يرفض له طلبا واحدا حتى وإن كان أغدقه بالخير قبل ذلك الرفض.

لكن مجرد الرفض مرة واحدة يكون تذكرة الوصول لخانة الكراهية والانتقام في قلبه ونيل النصيب من لعنته.

اعتدلت نبيلة وهي تجلس أرضا قائلة بارتجاف: حاتم اللي بتعمله ده هيوديك في داهية

ضحك حاتم بمرارة قائلا: خايفة عليا ولا خايفة على عمرك اللي ممكن أخده في لحظة

نبيلة بصوت مرتجف من الخوف: هتستفاد إيه؟ أنا عمرى ما أذيتك!

مسكها حاتم من شعرها بقسوة فصرخت ألما وقال بصوت جمّد الدماء في عروقها: كون إنك كنتي عارفة مكان وردة طول السنين دي وكمان عارفة إنها هربت مع أخويا، ده كفيل يخليني أقتلك وما أشعرش بذرة ندم بعدها

بكت نبيلة بشدة وهي في قبضته وقالت بانهيار: هو الحب والجواز بالعافية أنا عملت كده لمصلحة بنت عمي

تجاهل حاتم كلامها وهو يضغط على أسنانه بغيظ وجذبها من شعرها أكثر فصرخت وقال: وردة ففي؟

نبيلة بصراخ باكية:ما أعرفش

صفعها بيده الأخرى قائلا بثورة: كدابة

ورفع وجهها إليه قائلا وهو يعتصر جانبي وجهها في راحته: إنطقي لو عايزة تعيشي.

استمرت نبيلة في بكائها وأثرت الصمت.

أفلتها حاتم من يده وتركها تبكي وأخذ يدور في المكان كفهد جريح قائلا: الظاهر العنف مش هيجيب معاكي نتيجة، طاب إيه رأيك لو عملت معاكي إتفاق كويس؟

نظرت له بتساؤل وهي تنتحب فأكمل بلهجة ذات معنى: إيه رأيك لو يبقي عندك ابن وترجعي لأهلك اللي كانوا مقاطعينك؟

نبيلة بصدمة متناسية بكائها: إيه؟!

حاتم بسرعة ليقنعها: ابن وردة وحسام، أظن إنتي أولى الناس بيه

نبيلة بصدمة: بتبيع لي ابن أخوك يا حاتم؟!

حاتم بقلب متجمد: سميها زي ما تسميها، أنا مش عايز غير وردة وبس ولادها ما يهمونيش ومش عايز أبويا يعرف عنهم حاجة

ظهر التفكير على وجه نبيلة فقال حاتم بانتصار: أظن إن العرض عجبك

غلب طمع نبيلة في طفل صديقتها حبها لها وقالت بصوت خجل من نفسها: وده هيحصل إزاي؟

اتسعت ابتسامة حاتم ونزل أرضا وهو يبث سُم حديثه في وجهها بتشفي قائلا: أقولك.

****

***عودة للحاضر ***

خرجت نعمات من غرفتها في ظلام المنزل نظرت في ساعة الردهة فوجدتها الثانية صباحا.

صعدت بخفة إلى الطابق العلوي وهي تتحاشى أن ينتبه إليها أحد.

كانت ياسمين نائمة بغرفتها فدخلت عليها نعمات وأيقظتها قائلة: ياسمين.. ياسمين، يلا قومي نروح لطارق زي ما وعدتك

همهمت ياسمين بنعاس واعتدلت قائلة: إتأخرتي ليه؟ أنا نمت وأنا مستنياكي

نعمات وهي تخرجها من تحت الغطاء: طاب يلا عشان إتأخرنا

كادت ياسمين تسقط وهي تمشي بجوارها فأنقذتها نعمات قائلة: كلتي الشوكولاته؟

ياسمين بوهن وهي تنزل معها درج المنزل: أيوه، بس من ساعتها حاسة إني تعبانة

نعمات وهي تفتح باب المنزل بحذر: معلش، ده بس عشان نمتي

أغلقت الباب خلفها بهدوء ومشت مع ياسمين حتى خرجت من البوابة فوجدت خالتها تنتظرها خارج السور.

أم ريحان بعصبية مكتومة: إتأخرتي كده ليه؟

نعمات وهي تحتضن الفتاة النصف نائمة تحت ذراعها: جرا إيه يا خالتي ده هما دقيقتين على ما جبت البت

انتزعت أم ريحان الفتاة من يدها بقسوة قائلة: طاب يلا خلينا نخلص.

لم تبدِ ياسمين أي ردة فعل وإنما مشت معهم بكل استسلام وهي غير متوازنة.

مشوا باتجاه المكان الذي أغرقوا به طارق وزياد من قبله.

نزلت أم ريحان لمستوى الماء ومعها ياسمين بينما قالت نعمات وهي تلتفت حولها: همشي أنا بقا

أم ريحان وهي تهم بإغراق ياسمين: إستني هخلص ونمشي سوا.

فجأة سطعت كشافات في وجوههم وظهر محسن ورجال الشرطة ومعهم أكرم وحاتم وجبريل.

محسن بانتصار: تمشوا فين، ده إحنا بقالنا سنين بندور عليكوا، حمد الله على السلامة.

نظرا له بصدمة ولكن أم ريحان تمالكت أعصابها أسرع وهي تلقي بياسمين وسط الماء قائلة بشر وغل: برضه هموتها، حتي لو كانت أخر حاجة هعملها في حياتي.

سقطت ياسمين وسط الماء ففز أكرم بسرعة خلفها قائلا بهلع: ياسمين

قفز حاتم خلفه وأسرع جبريل إلى الشاطئ قائلا بفزع: ياسمين طلعوها بسرعة يا ولاد.

أمسك رجال محسن بنعمات و أم ريحان التي بدا على وجهها الشماتة.

محسن بازدراء: اللي جواه الكره ده كله، لازم تبقي نهايته أسود من قلبه.

نعمات باستسلام باكية: محدش يتكلم عن سواد القلب، اللي حس بوجعنا هيعرف إحنا عملنا كده ليه.

محسن باحتقار: مهما كان اللي حصل، إنتوا قتلتوا أطفال ملهاش ذنب.

واستدار إلى أم ريحان قائلا بغيظ: وكمان ما همهاش إننا واقفين ومصممة تكمل!

أم ريحان بثبات ووجه جامد: ولو ليا عمر مش هبطل أحاول أحرق قلبه على كل اللي ليه، زي ما حرق قلبي على ابني الوحيد.

خرج أكرم من الماء والتقط ياسمين من حاتم ووضعها أرضا يحاول إنعاشها وأنضم له جبريل الذي قال بفزع وهو يمسك يدها: ياسمين ردي عليا يا بنتي

خرج حاتم من الماء وأسرع إلى نعمات وأم ريحان اللتان كانتا يقودهما رجال الشرطة إلى العربة الخاصة بهم.

أمسكهما من شعرهما كل واحدة بيد قائلا بغضب وهو يجرهم أرضًا: إنتوا بقا اللي قتلتوا ولادي، نهايتكم على إيدي

خلص الرجال السيدتان من يده وهما يصرخان بشدة بينما أمسكه محسن قائلا بغضب: جرا إيه يا محترم، أنت مش عامل حساب لوجودنا ولا إيه؟

أتى بعض سكان البيوت القريبة مسرعين في ظلام الليل وهم يحملون كلوبات الإضاءة على الأصوات التي أيقظتهم من سباتهم بينما أسرع الرجال بنعمات وأم ريحان إلى عربة الشرطة التي تقف في مكان قريب.

تركهما حاتم على مضض وأسرع إلى ياسمين التي سعلت بشدة بعد إنعاش أكرم لها واحتضنها جبريل قائلا بلوعة: حمد الله على سلامتك يا بنتي

خلع جبريل عباءته ولفها بها بينما حملها أكرم قائلا: هخدها على البيت زمان سعاد هتتجنن هناك

هم حاتم بأخذها منه فأبعده أكرم قائلا بصرامة: ابعد إيدك إنت ما تستاهلش تلمسها.

نظر له حاتم بغيظ ولم يرد بينما قال جبريل بضيق: ليه كده يا أكرم، ده أبوها وإحنا أولي ببنتنا

أكرم وهو يغادر مسرعا: إنت على راسي يا حاج، بس ابنك الله يسامحه بقا

حاتم لوالده بعصبية: سامع كلامه يا بابا، إنت اللي بليتني بالجوازة دي وقعدت أقنع نفسي سنين إني بحبها بس هي نحس هي وأهلها

جبريل بهدوء وهو يتفحصه بنظره: إنت عملت إيه يا حاتم بيخلي أكرم كل شوية يقولك الكلام ده

نفخ حاتم بضيق قائلا: هكون عملت إيه يعني، إنت هتاخد على كلام واحد مهلوس زي ده

جبريل بعدم تصديق: هعرف برضه، أصل فيه حاجات كتير إفتكرتها كنت ناسيها وهنتكلم فيها سوا بس في البيت، يلا قدامي.

ودفعه أمامه وحاتم يزفر بضيق وهو يمسح منظاره المبتل بملابسه في محاولة فاشلة لتجفيفه.

****

وضع أكرم ياسمين في سريرها قائلا لسعاد: غيري لها هدومها بسرعة عشان هتاخد برد بسبب الجو

همت سعاد بتغيير ملابس الفتاة وهي تبكي قائلة: يا حبيبتي يا بنتي لو كان جرالك حاجة كنت هموت وراكي

سمع أكرم صوت سيارة تدخل الحديقة فنظر من النافذة قائلا وهو يغادر بسرعة: مهما حصل ما تخرجيش من الأوضة دي إنتي وياسمين

سعاد وهي تنادي عليه بفزع: ليه هو في إيه تاني؟!

لم يجبها أكرم الذي أغلق الغرفة خلفه ونزل مسرعا إلى الحديقة ليقابل ليلى ووالدها ومعهما الضابط المكلف بقضيتها.

الضابط: حد لسه صاحي يا أكرم؟

أكرم وهو ينظر إلى ليلى التي تستند علة والدها: إدخلوا بسرعة حاتم بره هو ووالده عشان خلصنا قضية الولاد الليلة بس زمانهم علة وصول خلاص

الضابط وهو يساعد ليلى وكمال في الدخول: طيب كويس، أظن ده هيسهل علينا مأموريتنا

قادهم أكرم إلى الداخل قائلا وهو يصعد الدرج: أوضة حاتم فوق، يلا بسرعة والتفت قائلا: معاك إذن النيابة بالتسجيل؟

صديقه: أيوه كله تمام.

أسرعوا خلفه ودقائق وفتح جبريل باب المنزل ومعه حاتم.

جبريل بصرامة: لو مكنتش فعلا ضربت ابن الست دي بالنار ماكنتش قتلت الولاد

حاتم ببجاحة: أنا ما عملتش حاجة، هي اللي ست حقودة ومريضة نفسيا

جبريل بصرامة: أنا خلاص مش هصدقك في حاجة تاني، إنت مش ابني اللي ربيته، الشخص اللي قدامي عينه وتصرفاته فيهم قسوة وجحود ما أعرفهمش، أنا ربيتك إنت وحسام زي بعض، ليه ما طلعتش زيه؟

حاتم بغضب: تاني حسام! حتى بعدما مات بسنين لسه بتقارني بيه، حسام اللي إنت فرحان بيه ده خاني وطعني في ضهري كسر قلبي وما همهوش حد

جبريل بغضب: إنت إزاي تتكلم عن أخوك كده احترم غيبته وموته على الأقل

حاتم بغضب هادر وهو يصعد إلى غرفته: لأنه ما يستاهلش غير كده.

تابعه جبريل بنظره مصدوما من أفعاله وتصرفاته التي يظهر بهما الحقد كل يوم أكثر.

فتح حاتم باب غرفته وأغلقها خلفه.

دفع أحد المقاعد الخشبية بقدمه في عنف قائلا بغضب هادر وهو يلقي بأنية الزهور إلى المِرْآة التي بغرفته ليتهشما سويا بعنف: كل حاجة حسام بعد كل اللي شوفته وعانيت منه طول حياتي لسه بيقارن.

واضح إن عندك عقدة من صغرك.

نطقت ليلى الجملة في هدوء وهي تجلس بأحد أركان الغرفة المظلمة.

استدار حاتم بسرعة غير مصدقا ما يراه وما يسمعه.

أسرع يضيء أنوار الغرفة لكنها لم تستجب له.

حاول فتح الباب والخروج ولكنه لم يستجب أيضًا.

نهضت ليلى من مكانها واتجهت نحوه ببطء قائلة بثبات: إيه خايف؟

بلع حاتم ريقه قائلا بصعوبة: إنتي إيه؟ إنتي إزاي هنا ؟ إنتي مش موتي؟

ابتسمت ليلى بسخرية قائلة: ما وردة كمان ماتت ومع ذلك شوفتها أنا واللي قبل مني وأهل البلد كلهم عارفين إن طيفها موجود وياما ناس شافته

حاول حاتم تمالك أعصابه قائلا وهو يمسك جانبي رأسه : ده أكيد كابوس، أنا أكيد بحلم

اقتربت ليلى منه أكثر وهي تقول بلهجة منخفضة جمدت الدماء في عروقه: لأ أكيد ده مش كابوس، إنت لازم تشوف العذاب وتعيشه زي ما قتلت ناس ملهاش ذنب

حاتم بهستريا: إنتي عايزة إيه؟

ليلى بغضب: ليه عملت فيا كده؟ أنا عملت لك إيه؟

حاتم بغضب مماثل: كنتي عايزاني أسيبك عشان تحكي وتفضحيني

ليلي بصراخ واهن: إنت غبي، أعمي القلب والبصيرة، هو أنا كان عندي دليل على اللي قولته لك أصلا، حد كان هيصدق إني عرفت المعلومات دي من واحدة ميتة؟!

حاتم وهو يمسح وجهه براحتيه قائلا بصوت مبحوح: غلطة عمري إني ما أشتريتش بيت وردة ده وولعت فيه بجاز وخلصت

ليلى لتستفزه: ما إنت ولعت فيه قبل كده وبرضه ما قدرتش تخفي جريمتك، وهي كانت عملت لك إيه هي وبنتها، هما حتى عيلة أخوك، إزاي تعمل فيهم كده!

حاتم بغضب هادر: هي دبحتني هي وأخويا، هربت وخلتني مسخة ولبانة في بق أهل البلد كلهم، خلتني مش قادر أرفع راسي والناس كلها عارفة إنها رفضتني ودبحتني، أنا كان أهون عليا ألاقيها متجوزة أي حد تاني غير أخويا ما قدرتش أستحمل

ليلى بانتصار لأنها جعلته يتحدث: عشان كده قتلتها هي وبنتها بعدما ما خليت نبيلة تجيبهم لك لحد البيت

حاتم بجنون وهو يعتصر ذراعه المصاب ألما: أيوه نبيلة ما صدقت بعد كام قلم خدته مني وبعد ما قلت لها خدي ابنها وربيه بدل ما أنتي أهلك مقاطعينك

ليلى باحتقار: عمري ما كنت أتخيل إن فيه ناس بالحقارة دي زيك إنت ونبيلة

حاتم وهو يهجم عليها: اخرسي بقا، أنا بتكلم مع إيه أصلا.

تفادته ليلى في اللحظة المناسبة قبل أن يلمسها فسقط أرضا وحاولت هي تمالك أعصابها بسرعة قبل أن ينتبه لها وهي تشير بيدها بإشارة خفية للضابط الذي يختبئ بشرفة حاتم النصف مفتوحة ألا يظهر الآن.

حاتم وهو يجلس أرضا بضعف غريب: أنا مكنتش ناوي أقتلها لا هي ولا بنتها مكنش قصدى

***

جذبت وردة زهرة التي كانت تحتضن حاتم من ساقيه إليها وهي تقول بخوف: زهرة تعالي هنا ده مش بابا

ارتسمت ابتسامة ساخرة على فم حاتم قائلا بمرارة: ياه، للدرجة دي عارفاه حتى وأنا زيه بالظبط عرفتيه

بدأت زهرة تخاف وهي تقول لوالدتها: إزاي ده مش بابا يا ماما!

تجاهلت وردة سؤالها وهي تحميها خلف ظهرها قائلة بارتعاش: إنت إزاي عايش؟! حسام قالي في الجواب إنك...

قاطعها حاتم بسخرية قائلا: إني إيه؟ موت؟

ابتلعت وردة ريقها بصعوبة قائلة بخوف: حسام فين؟

هز حاتم رأسه قائلا بابتسامة ساخرة: هو مش وإنتي داخلة البلد شوفتي عزا برضه عند بيتنا، إن مكنش أنا هيكون مين؟

وردة بعدم فهم و صدمة: قصدك إيه؟

حاتم بشماتة: هو اللي إنتي فهمتيه بس عقلك رافضه

وردة وهي تطبق علي يدي ابنتها أكثر وهي علي وشك البكاء: قصدك إن حسام..

لم تستطع إكمال الجملة فقال هو بقسوة قطعت قلبها إربا: هو اللي مات

وردة ببكاء متقطع وهي لا تستطيع تجميع كلامها: إزاي، ده لسه سايبلي جواب مع جارتي أول إمبارح وقالي إن إنت اللي...

قاطعها حاتم قائلا بثورة: ما تفهمي بقا يا غبية، أنا اللي بعت لك الجواب.

انهمرت دموعها أكثر وهي تضع يدها على فمها بينما قالت زهرة بخوف: ماما،هو بابا مات؟

لم تجبها وردة بينما اقترب منهم حاتم وهو ينزل لمستوى الطفلة قائلا: على فكرة أنا المفروض اللي كنت أبقي أبوكي

زهرة ببراءة: بس حضرتك شبه بابا بالظبط

ابتعدت وردة بها عنه قائلة ببكاء: في الشكل بس، لكن عمره ما كان ولا هيكون شبهه في القلب

نهض حاتم وهو يجز على شفتيه ويكتم غضبه.

أمسك تمثال من المنزل المغطي بالأتربة وألقاه أرضا قائلا بغضب هادر: لسه زي ما أنتي السنين ما غيرتكيش.

سقط التمثال على الأرض مُحطماً بصوت مسموع جعلها تنتفض وهي تحتضن ابنتها وتتراجع بها خطوتين إلى الخلف.

وردة وهي تربت على ابنتها التي بدأت تخاف وتبكي: وإنت زي ما أنت قلبك إسود ومريض نفسي ومهما كان اللي ساعدك وخلاك توصلي فأنا مش هسيبهم وحسابهم معايا أما أمشي من هنا.

ضحك حاتم بسخرية أكبر وهو يقول: إنتي صحيح هتمشي من هنا بس على المكان اللي أنا عايزه، هأعيشك مذلولة، هطلع عليكي ذل السنين اللي أنا شوفته هتبقي ملكي أنا وبس.

وردة وهي تحاول تمالك أعصابها ومسح دموعها التي لا تكف عن الانهمار رغما عنها قائلة برجاء: ارجع لمراتك وولادك وسيبني أربي ولادي، سيبني أمشي يا حاتم بالله عليك.

حاتم بقسوة: بالسهولة دي

وردة برجاء: الوضع دلوقتي إتغير، أنا بقيت أرملة أخوك ومعايا ولاده سيبني أعيش في هدوء أربيهم، سيبني أروح أخد عزا جوزي اللي ما أعرفش مات إزاي.

أخرج حاتم مسدسه فشهقت وردة بفزع وهي تحاول حماية زهرة خلفها قائلة: إنت هتعمل إيه؟

حاتم ببرود قاسي: قدامي ومش عايز كلام ملهوش لزمة، عمرك ما هتصعبي عليا ولا هسيبك

تمالكت وردة أعصابها وهي تقول: مش همشي معاك حتى لو قتلتني هنا

أخرج حاتم منظاره الطبي وارتداه قائلا: طاب إيه رأيك كده؟

قالها وانتزع زهرة من خلفها بعنف فصرخت الطفلة.

حاولت وردة مسكها قائلة بتوسل باكية: لا سيبها يا حاتم، بنتي ملهاش ذنب

وضع حاتم المسدس في رأس الطفلة التي تبكي بخوف قائلا بقسوة: لو عايزاها تعيش، قدامي من سكات

وردة بفزع: حاضر حاضر، بس سيبها

مشى حاتم بالطفلة في اتجاه الباب وخرج بها خطوتين فأسرعت وردة واختطفتها منه لتلقيها بالداخل

أسرعت مرة أخرى لتغلق الباب في وجهه لكنها لم تستطع مقاومة حاتم الذي يدفعه بشدة من الخارج فسقطت أرضا بالداخل ودخل حاتم قائلا بغضب هادر وهو يمسكها من شعرها ويجرها أرضا في اتجاه الباب: إنتي إيه ما بتتهديش

أسرعت زهرة تحاول تخليص والدتها من يده في محاولة بائسة وهي تضربه بضعف قائلة بصراخ باكي: سيب ماما، يا ماما

دفعها حاتم بيده في عنف فاندفعت بعيدً إثر ضربته لتصطدم رأسها بجانب حاد لإحدى الطاولات ويهدأ جسدها الصغير على الأرض بلا حراك

صرخت وردة قائلة بلوعة: بنتي زهرة

أفلتها حاتم من يده وهو في صدمة مما فعل فأسرعت زحفا إلى ابنتها وهي

تضع يدها على جانب رأس ابنتها الذي تفجرت منه الدماء قائلة بصدمة باكية: زهرة، لا ردي عليا يا حبيبتي

لم تجبها الطفلة فصرخت وردة وهي تحتضنها إلى صدرها قائلة: زهرة لا بنتي

تراجع حاتم خطوتين إلى الخلف وهو في حالة صدمة فنظرت له وردة نظرات أم جريحة قائلة: قتلتها يا حاتم، أنا هقتلك

تركتها وأسرعت إليه محاولة أخذ المسدس من يده فلم تنجح وظل يجذبه حاتم من يدها المطبقة عليه قائلً بغضب: سيبي يا غبية كده هتموتينا

لم تتركه وردة وفجأة دوت رصاصة في المكان واتسعت عيني حاتم بصدمة أكبروهو يراها تفلته وتسقط أرضا ببطء وصدمة وما زالت دموعها تبلل وجهها.

سقطت وردة على وجهها وقد هدأت أنفاسها واستقر جسدها بالقرب من جسد ابنتها.

نظر لها حاتم بصدمة أكبر وهو يقلبها على ظهرها ليجد الرصاصة قد استقرت في قلبها تماما وانتهى كل شئ.

****

جلست نبيلة بجوار زوجها جلال أمام مكتب رئيس النيابة ينتظرون دورهم في التحقيقات.

نبيلة وهي تنظر أرضا بضعف: هنعمل إيه يا جلال؟

جلال وهو ينظر أرضا أيضاً بجمود: هنعمل إيه في إيه؟

التفتت له نبيلة وهي تقول بدهشة: في القضية، هيكون إيه ده تزوير يعني فيها سجن

ابتسم جلال بمرارة قائلا: هو ده كل اللي هامك، نفسك وبس، ما فكرتيش

في اللي إنتي إتسببتي في موتهم، حسام كان دايما يوصيني عليهم أما يسافر مكنش يعرف إن مراتي هي اللي هتقتلهم

نبيلة بندم: أنا أسفة، مكنتش أقصد

جلال بمرارة: أسفة! مفيش أسف في أرواح الناس، خصوصا أما يكونوا أصحاب عمرنا وأخواتنا، أنا حاسس إني عشت عمرى كله في كدبة، حاسس إني ما أعرفكيش

حاولت نبيلة مسك يده فأنتزعها منها وهو ينظر للجانب الآخر فقالت وهي على وشك البكاء: جلال أنا ...

قاطعها جلال وهو ينظر له بخيبة أمل قائلا بحسم: إنتي طالق

شهقت نبيلة بصدمة وهي تقول برجاء باكية: جلال

رفع جلال كفه أمام وجهها قائلاً بحزم: خلاص وما تقلقيش قضية التزوير هأشيلها لوحدى لأن أنا كمان لازم أكفر عن ذنبي.

خرجت ليلى في هذه اللحظات من غرفة رئيس النيابة وانضمت إلى والدها وعادل اللذان كانا بانتظارها.

خرج عسكرى من الغرفة واتجه إلى جلال وهو يقوده إلى الداخل لأخذ أقواله فمشى معه باستسلام.

أسرعت نبيلة خلفه وهي تستعطفه قائلة ببكاء: جلال سامحني

لم يجبها وصفع العسكرى الباب في وجهها فنظرت له بألم وبكائها يزداد وهي تضع كلتا يديها على فمها.

وقفت ليلى خلفها وهي تنظر لها بتشفي قائلة: مدام نبيلة

التفتت لها نبيلة بتساؤل من وسط دموعها فقالت ليلى بصرامة: تخيلي لو وردة موجودة قدامك دلوقتي هتعمل معاكي إيه؟

نظرت نبيلة أرضا وهي خجلة من نفسها فتابعت ليلى بثقة: أنا عارفة، لأنها وصتني أوصلك رسالة

رفعت نبيلة وجهها إليها بتساؤل فصفعتها ليلى على وجهها وهي تبتسم بتشفي وشماتة.

****

بعد مرور ستة أشهر

مشى أحد العساكر في طرقات الحجرات الانفرادية للحجز قائلا لزميله: اللي اسمه حاتم جبريل ده كل يوم ندخله الأكل ونطلعه زي ما هو

زميله بتعاطف: مش ده اللي محكوم عليه بالإعدام

الأول وهو يفتح الزنزانة: أها هو

فتح الباب فقال له زميله وهو ينظر للداخل بصدمة: إيه ده؟

أسرع الأول إلى حاتم الملقى أرضا على وجهه ليجده قد قطع شرايين يده بشفرة حلاقة.

العسكري بصدمة: ده انتحر

أطلق الآخر صافرته ليعلن في السجن حالة الطوارئ.

*****

جلس جبريل في غرفته ومعه كريم وياسمين اللذان يلعبان حوله وهو ينظر لهما بانكسار وحزن كأنه زاد مائة عام فوق عمره.

دق الباب ودخلت سعاد وهي تحمل أكواب العصير قائلة بتشجيع: العصير يا ولاد، مين اللي هيكبر ويبقي قوي

أسرع الطفلان إليها وهما يقولان بحماس: إحنا

جبريل بوهن: معلش يا سعاد، سيبيني لوحدي معاهم عايز أشبع منهم

سعاد بتنهيدة: حاضر يا عمي

خرجت سعاد وتركته يغرق في بحر ذكرياته مع أحفاده، الشيء الوحيد المتبقي من أولاده.

قابلتها والدتها في الردهة قائلة بحزن: برضه عايز يقعد معاهم لوحده

سعاد وهي تجلس: أيوه أنا قلقانة عليه أوي، حاسة بيه فقد الضنا مش سهل، أنا مجربه

أجهشت بالبكاء فجلست بجوارها والدتها وهي تربت على ظهرها قائلة بعطف وإشفاق: خلاص بقا يا بنتي، هوني علي نفسك، كده هتخليني أعيط معاكي، ده أمر ربنا

مسحت سعاد دموعها وهي تقول لها: ربنا يخليكي ليا يا ماما، لولا وجودك معايا في البيت هنا، مكنتش هقدر أكمل فيه

والدتها بحنان: وأنا كنت أقدر أسيبك لوحدك يعني، أنا وأكرم مقدرين إنك ما تقدريش تسيبي الحاج جبريل لوحده بعد اللي حصل

ثم تابعت بتردد: و صحيح إتأكد إن حسام ابنه كان متجوز ومخلف فعلا

سعاد بتنهيدة: أيوه لقى كل الأوراق اللي تثبت الكلام ده، في أوضة حسام الله يرحمه

والدتها باستغراب: غريبة يعني من ساعة ما حسام مات من سنين ما لقهاش غير بعد اللي حصل

سعاد بهدوء: أصل أوضة حسام كانت مقفولة وما فكرناش ندور فيها غير بعد اللي حصل ده كله

والدتها بتنهيدة مشفقة: ربنا يصبره

ثم أردفت بتردد: مش هتروحي تزوري حاتم قبل تنفيذ الحكم

ترقرقت الدموع في عيني سعاد قائلة: بلاش ملهوش لزمة أشوفه في الحالة دي وكمان مش قادرة أسامحه

مسحت الدمعة التي فرت منها بسرعة قائلة: الله يسامحه ربنا يقدرنا بس على تربية الولاد ونعوضهم

والدتها بدعا: يارب يا بنتي

***

في هذه الأثناء كانت نبيلة تجلس على أحد الأسرة بإحدى مستشفيات العلاج النفسي وهي تضم ركبتيها إلى صدرها وتدفن رأسها بينهم

خرج الطبيب من غرفتها ليقابله أخيها قائلا بقلق: إيه الأخبار يا دكتور؟

الطبيب بأسف: للأسف، مفيش أي تحسن، مدام نبيلة رافضة تعيش بتنتحر بالبطيء

أخيها بألم: يعني إيه؟ مفيش فايدة ولا أي تحسن

الطبيب بأسف وهو يغادر: ادعي لها.

****

انتهت ليلى من جمع أغراضها ودخل كمال عليها قائلا: لميتي كل حاجة يا ليلى؟

ليلي وهي تغلق حقيبتها: أيوه يا بابا،هي العربية جاية إمتى؟

كمال: الساعة تسعة الصبح إن شاء الله

ليلى بتساؤل: طيب لما النتيجة تبان هاجي معاك نجيبها؟

كمال: إن شاء الله بالتوفيق يا حبيبتي

ليلى بدعاء: يارب

كمال بتردد: ليلى هو إنتي لسه بتشوفي حاجة في البيت هنا؟

أدارت ليلى وجهها لتخفي انفعالاتها قائلة: حضرتك كل يوم تسألني السؤال ده يا بابا

كمال بأبوة: عايز أطمن عليكي يا حبيبتي، أنا وافقت إننا نرجع نعيش في البيت ده لحد ما تخلصي امتحاناتك، بس عشان إنتي طلبتي تكملي مع بسمة وقلتي هأبقي مرتاحة هنا

ليلى وهي تعدل فراشها: اطمن يا بابا قلت لحضرتك من ساعة ما حاتم إتقبض عليه وكل حاجة خلصت خلاص

كمال بشك: أكيد؟

ليلى وهي تجلس في فراشها: أكيد يا بابا

قبّل كمال رأسها قائلا بتنهيدة: طيب تصبحي علي خير

ليلى بابتسامة: وحضرتك من أهله

خرج كمال وأغلق الأنوار ودقائق وهدأ البيت تماماً بعد نومه.

- ليلى..

إنبعث النداء هادئ من خلف ليلى فنهضت لتجلس على سريرها وهي تلتفت إلى وردة بابتسامة مرحبة: إتأخرتي ليه؟ خفت أمشي قبل ما أودعك.

****

تمت بحمد الله